

الفينلوف ٧٧٣ الحائر

قال حاكم المدينة لصاحبيه حين سكت الغناء : ما أجل هذا الصوت ! ما أذكر أنى سمعت قط شيئاً يقاربه عذوبة وسحراً . قال كلكراتيس : إنه ليأتى من بعيد . قال أندروكليس فى شىء يشبه الدهول : ويدعو إلى بعيد . والتفت الحاكم إلى المغنية وهو يقول : من علمك هذا الصوت يا ابنتى ؟ فقد ملأت به أسماعنا وقلوبنا وعقولنا منذ الليلة ! قالت الفتاة فى تحفظ شديد ، مصدره حياء شديد : لقد أخذته عن أمى يا مولاي ، وأخذته أمى عن جدتى ، وهو صوت شائع متوارث فى مدينتنا منذ الزمان القديم ، يتغنى به الفتيات الحسان إذا خرجن مع الصبح يستقبلن الفجر المضىء الرطب بوجوههن المشرقة الوضاعة ، ويملأن جرائهن من ماء النيل . يتغنين به فرحات مرحات ، كأنما يترجمن به عن فرح الطبيعة المستيقظة ، ومرح الصبح النشط . ومع ذلك فما سمعت أمى تتغنى هذا الصوت مرة إلا رأيت على وجهها كتابة وشحوباً ، وأحسست فى غنائها حزناً تنفطر له القلوب . وقد سألتها عن ذلك فأعرضت عنى مرات ، ولكنها كانت تعاود الغناء فتعاودها الكتابة التى تغشى وجهها ، ويعاودها الحزن الذى يشيع فى صوتها ويفيض على الجو من حوطا حسرة وألماً ، فأعود أنا إلى السؤال وألح فيه . فلما طال عليها ذلك منى أنبأتني نبأ هذا الصوت ، وعرفت

منها أن جلنقى لم تكن تتغناه إلا نثار في نفسها حزن عميق وتحلدر من عينيها دمع غزير .

وما أكثر ما تخرج الأشياء عن أطوارها وتجرى الأمور في أجيال المحذئين على غير ما كانت تجرى عليه في أجيال القدماء ! كان هذا الصوت صورة الحسرة واللوعة ، وترجمان الجزع واليأس عند جدّاتنا في الزمان الأول ، فإذا هو الآن عند أترابنا من أهل هذا الجيل صورة الفرح والمرح ، وترجمان اللذة والغبطة والسرور .

ولقد تغنيت هذا الصوت في كثير من المجالس ، وتردد به صوتي في كثير من قصور الحكام والسادة ، فإرأيت أحداً سمعه ، ثم ذاقه ، ثم فهمه على وجهه ، ثم شاركني فيما أجد من عاطفة وما يملأ نفسي أثناء غنائه من شعور ، قبل أن أراكم الليلة ، وقبل أن أسمع سؤالكم عنه وقدركم له وحكمكم عليه .

ثم أمسكت الفتاة عن الحديث ، أو انقطع صوتها انقطاعاً ، حبسته في حلقها عبرةً أمسكتها الفتاة إمساكاً ، ولكنها تفجرت من عينيها دموعاً متحدرة على خديها الجميلين .

هنالك أسرع أندروكليس في شيء من الدعابة الخفيفة إلى الفتاة فقبل بين عينيها ، ومسح هذا الدمع المتحلدر وهو يقول : مهلاً يا ابنتي ! ما ينبغي لهاتين العينين أن تبكيا ، ولهذا الوجه الجميل أن يغسله الدمع ، ونحن بعد لم نجتمع للبكاء والحزن ، وإنما اجتمعنا للغناء واللهو . فانتقلي بنا من هذا الصوت الحزين المحزن إلى لون آخر من ألوان الغناء . خذى في بعض هذه الأغاني التي تملأ جو الساحل بهجة وسروراً ،

والتي ينتقل بها أولئك الفتيات على مجالس السّمار وأصحاب العبث مع ما ينتقلن به من طاقات الورد والياسمين .

قال كلكراتيس في صوت هادئ كأنما يملكه صاحبه في شيء من العنف والشدة على نفسه : دعنا من دعابتك ومجونك ، وأرحنا من فرحك ومرحك ، فما أهون الدعابة والمجون ، وما أيسر الفرح والمرح ! وإننا لنرى ذلك منذ نصبح إلى أن نمسى ، وإننا لنرى ذلك منذ نمسى إلى أن يتقدم بنا الليل . يا عجباً للذين لا يسأمون اللذة ، ولا يضيعون باللهو ، ولا يحتاجون بين حين وحين إلى شيء من الحزن يردّ نفوسهم إلى بعض أطوار الجدة ويصوّر لهم الحياة على أنها شيء غير هذا الباطل الذي لا ينقضى ، والعبث الذي لا يزول . إن لصوتك هذا يا ابنتي لنبأ ، فحدثينا به وقصّبه علينا ! فقد شاركناك في ذوقه وفهمه ، فما أبجدنا أن نشاركك في العلم بما له من تاريخ !

قالت الفتاة مترددة متحفظة وقد نظرت إلى حاكم المدينة نظر المستأذنة المستأمنة ، فأشار إليها برأسه ويده أن امضي فليس عليك بأمر . قالت الفتاة : إن لهذا الصوت تاريخاً لو عرفه أصحاب السلطان لحظروا غناءه على فتيات الريف .

قال الحاكم : سأعرفه ولك على ألاّ أحدث في أمره شيئاً . قالت : فإنه صبيحة من تلكم الصبيحات التي انبعثت من نفوس الشعب حين فرض عليها دين المسيح وضدّت في قوة وعنف عن دين الآباء والأجداد . ألم تسمعوا إلى ألفاظه ؟ ألم تفهموا معانيه ؟

لأنها تسأل عن نجم كان يشرق في السماء إذا تقدّم الليل ، وكان يبعث مع أشعته إلى نفوس الناس لذة وجباً وأملاً ، وكان الناس ينتظرون مطلعه ليتلقوا أشعته التي كانت تحمل إليهم الحياة ، وتجدد في نفوسهم الأمل ، وتمس قلوبهم بأجنحة الحب المحرقة . فلما فُرض عليهم الدين الجديد فرضاً وأخذوا بالإعراض عن حياة آبائهم وأجدادهم أخذوا عنيفاً ، أعرضوا كارهين عن هذا النجم ، فأخذوا لا ينتظرون مطلعه ، ولا يستقبلون أشعته ، ولا يرسلون نفوسهم إليه إذا جنهم الليل إلا أفلهم ؛ فقد كانوا يترقبونه خفية ويستقبلون أشعته سراً ، ويرسلون إليه نفوسهم من وراء الحجب . وكان هذا النجم قد أنكر إعراض عباده عنه ، وضاق ببحودهم لما كان يسدى إليهم من يد ، ويصنع فيهم من معروف ، أو كأنه أشفق من هذا الإله الجديد الذي ملأ عليه أرجاء الأرض وآفاق السماء ، فترقبه عباده الليلة بعد الليلة ، والليالي بعد الليالي ولكنهم لم يجدوه ، وأرسلوا إليه نفوسهم ولكنها عادت إليهم باليأس والإخفاق ، وبالחסرة واللوعة ، وبالجزع والقنوط .

فهذا الصوت سؤال ساذج ، توجهه النفوس الساذجة إلى السماء الصامتة وإلى النجوم الخرساء ، تسألها عن نجمها الذي أضلته ما خطبه ؟ وأين يمكن أن يكون ؟ وهل لها إليه من سبيل ؟ فلا ترجع عليها السماء جواباً ، ولا تردّ عليها النجوم صدى ، كأنما أدركها الصمم ، وكأنما عُقدت ألسنتها عن الكلام . ومع ذلك فما كان أكثر ما تسمع السماء والنجوم لأهل الأرض ! وما كان أكثر ما يسمع أهل الأرض لحديث السماء والنجوم !

قال كلكراتيس : فهو ذاك يا ابنتى ! وإنك لتتحدثين إلينا
بحديث أنفسنا ، وتعرضين علينا صورة قلوبنا ، فما أكثر الذين يلتمسون
هذا النجم أو نجماً يشبهه فى السماء فلا يجدونه ! وما أكثر الذين
يسألون عن هذا النجم أتراه التى تبدو إذا جن الليل فلا يظفرون
منها بشيء !

قال أندروكليس : إن النجوم صماء قد آذاها صوت هذه
النواقيس التى تقرع من كل بيعة فى كل قرية ، وفى كل وجه
من وجوه المدن ، فتملاً الجوى بهذا الرنين والطنين ، وتبسط بين أصوات
الناس وأسماع النجوم حجاً صفيحاً لا يخترقه السؤال ولا ينفذ منه الجواب .
قال حاكم المدينة وهو يتكلف الوقار ويتصنع الهيبة : مهلاً !
إنكم تُلحدون فى دين قيصر ! وإنكم تعلمون أن قيصر قد أعدّ
للملحدين فى دينه عذاباً شديداً ، وإنى أنا الموكل بهذا العذاب .
لقد آمنتك يا ابنتى على نفسك وعلى صوتك هذا الجميل ، فلا بأس
عليك ! ولكن خذى إن شئت فى غير هذا الغناء ، أو أريحى نفسك
لنأخذ نحن فى غير هذا الحديث .

وخلأ الحاكم بعد ساعة إلى صاحبيه ، ولكنه لم يخض معهما فى
لون آخر من ألوان الحديث ، وإنما حذرهما وحذر نفسه أيضاً من هذا
التهاون والتفريط ، وذكرهما وذكر نفسه أيضاً بأن قيصر لا يعرف
هواذة فى الإلحاد ، ولا ليناً مع الملحدين ، وبأن الوثنية إثم يعاقب عليه
القانون أشد العقاب : تصادَر فيه الثروة ، وتُستصق فى الأموال ،
وتُسفك فيه الدماء .

قال الحاكم : وقد أقامني قيصر كما تعلمان حفيظاً على دينه ،
كما أقامني حفيظاً على سياسته ومديراً لأمره في هذا الإقليم ، فكيف
به لو ارتفع إليه بعض ما نحن فيه ! وكيف به لو علم أنه قد آمنني
على الدين فأنا أخونه في الدين ، وأعين اثنين من صديقي على مثل
ما أمعن فيه من خيانة !

قال أندروكلييس : هون عليك فإننا لم نزد منذ الليلة على ما
تعودنا أن نفعل وأن نقول منذ أعوام ، قبل أن تلي الحكم وبعد
أن وليته ، ولم يرتفع إلى قيصر من أمرنا شيء ، فإذا يُخيفك ؟ وماذا
يدعوك إلى هذا الغلو في التحفظ والإغراق في الاحتياط ؟ أمشفق أنت
من هذه المغنية المصرية التي لا يبلغ صوتها ما وراء غرفتك وحجراتك ،
ولا تتصلل الأسباب بينها وبين أحد غيرك من الناس ؟

قال حاكم المدينة : بل أنا مشفق من جواسيس قيصر الذين
نعرفهم والذين لا نعرفهم ، والذين يندسون في كل بيئة وينسلون إلى
كل مكان ، ويتلطفون حتى يعرفوا أسرار البيوت ويظهروا على دخائل
النفوس ، ثم يرفعون ذلك إلى قسطنطينية فتصدر فيه الأوامر بما تعلمون .
وما صرفت الحاشية والندماء حين انتصف الليل ، وما صرفت هذه
المغنية آنفاً ، وما تعجلت الخلوة إليكما قبل إبانها لنفرغ لما تعودنا
أن نفرغ له من عبادة آلهتنا الذين نجهم ونؤثرهم على النحو الذي
يجبون أن يُعيدوا عليه ، وإنما أردت بما تعجلت من هذه الخلوة أن
أحذركما وأحذر نفسي ، وأن أذكركما وأذكر نفسي ، وأن
أستشيركما في حدث طارئ وخطب ملم . فقد ارتفعت الأنباء إلى

قسطنطينية بأن شيئاً من التهاون في الدين قد أخذ يشيع في هذا الوجه الذى يلينا من وجوه الدولة ، وبأن جماعة من المعلمين والفلاسفة قد أخذوا يظهرون إنكارهم لما كان من اضطهاد المعلمين والفلاسفة الوثنيين في بلاد اليونان ، وقد أخذوا يجهرون بشيء من الدعوة للدين القديم ، يظهر الآن يسيراً لا يكاد يُحس ، ولكنه يُوشك أن يقوى ويشيع وينبت في أطراف الأرض ، فيعظم الشر ، ويكثر الفساد ، ويتقبض دين المسيح عن أرض قد استقرت فيها سلطان المسيح .

وقد انتهى إلى ، اليوم ، أمر قسطنطينية أن أتبه لذلك ، وأنهض لمراقبته ومقاومته ، وأخذ الذين يظهر في سيرتهم إلحاد أو شيء يشبه الإلحاد بأقصى ما أمك من الشدة والعنف .

قال أندروكليس : فهذا سعى القسيسين وكيد الرهبان .

قال الحاكم : أو سعى المنافسين وكيد الخصوم . ومهما يكن من شيء فالخذر أيسر ما يجب علينا ، والاحتياط أولى ما يجمل بنا . قال كلكراتيس : إني قد ضقت بحياتكم هذه البغيضة التى

لا سماحة فيها ولا يسر ، ولا راحة فيها ولا لين . تضيق على الناس في حياتهم حين يغدون وحين يروحون ، وفي سيرتهم حين يجتمعون وحين يثفرون ، وفي أحاديثهم حين يلتق بعضهم بعضاً ، وفي فجوى ضمائرهم حين يخلو أحدهم إلى نفسه أو يدير في رأسه بعض ما يدير من الرأى . من الذى فرض لكم على الناس هذا السلطان ؟ ! ومن ذا الذى

أباح لكم أن تنفذوا إلى نفوس الناس وضمائرهم ، ولا تسألوهم عما يعملون حتى تسألوهم عما يرون ؟ ! وما ينبغي لكم مع ذلك أن تسيطروا من

أعمال الناس على شيء ما لم يُبدوا لكم صفحتهم أو يُظهروا لكم مقاومة وعصياناً .

فكيف بسؤالهم عن رأى العقل وحديث الضمير؟! أليس قد قال المسيح الذى يفرض قيصر على الناس طاعته ودينه: « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ؟ فما بال قيصر يتجاوز حدوده ، ويغير على ما ليس له ، ويلخل بيتنا وبين نفوسنا ، ويندس بيتنا وبين آلهتنا ! أليس يكفيه أن هدم المعابد ، ودمر الهياكل ، وألغى الديانات ومزق أصحابها كل ممزق ، وثأر للذين استشهدوا فى سبيل المسيح ، فجعل للأوثان شهداء امتحنوا فى أنفسهم وأهلهم وأمواهم حتى محوا من الأرض محواً ؟ ! أليس يكفيه أن يبلغ هذا كله حتى يدخل بين المرء وضميره ، ويندس بين المرء ونفسه ؟! أليس يكفيه أن يبسط سلطانه على الأجسام حتى يحاول أن يبسط سلطانه على القلوب والعقول ؟ ! وكيف السبيل له إلى استدلال القلوب والعقول ؟ ! إنى لألقى أعوانه وعماله بما يُرضيهم ويُرضيه ، فأكفّ عن نفسى أذاهم وأذاه ، ولكنى أكمّ فيما بينى وبين نفسى ما أشاء من الأمر ، وأدير فى رأسى ما أحب من الرأى ، وأتقدم بالدين والطاعة والحب فى قلبى لمن أؤثر من الآلهة . والأمر يستطيع أن يستقيم بين قيصر وبينى على هذا النحو من التفاهة الذى تستقيم عليه أمور الناس كلهم فيما بينهم من علاقة أو صلة . فما بال قيصر يكلف نفسه ما لا يُطبق ، ويحمل الناس من الأمر ما لا يحبون ويريد أن تخلص له قلوبهم وسرائرهم ، كما تدعّن له أجسامهم وظواهرهم ! إنه لا يبلغ من ذلك شيئاً ، ولكنه يُضيع قوته عبثاً ويفنى جهده

في غير طائل ، ويُحرج الناس ويرهقهم من أمرهم عسراً ، وينتهي
آخر الأمر إلى أن يصرفهم عن حبه ، ويزهدهم في طاعته ، ويملاً
قلوبهم بغضاً له وإنكاراً عليه ؛ وقد يدفعهم إلى أن يعصوه ويثوروا
بسلطانه حين يجدون إلى العصيان والثورة سبيلاً .

قال حاكم المدينة : على رسلك ! هدى من هذه الحدة ، وهون
من هذه الشدة ، واخفض من هذا الصوت ! فإنني قد صرفت الحاشية
والخدم والحجاب ، ولكنني لا آمن أن يكون قد تخلف منهم وراء
الأسرار أو دون الأبواب من يتسمع علينا . وما أرى بعد ذلك إلا أنك
تريد قيصر على ما لا يلائم أخلاق القياصرة . ففتى رأيت صاحب
السلطان الواسع العريض يرضى من الناس بأيسر الطاعة ، ويقبل
منهم ظاهراً من الخضوع ، ولا يكلفهم أن يُخلصوا له الحب ويُصفوه
مودة قلوبهم وخاصة نفوسهم ، فإن ظفر منهم بما يريد فذاك وإلا
حملهم عليه كرهاً ، وخيل إلى نفسه بل أقنع نفسه بأنه يستطيع أن
يصل إلى القلوب من نفس الطريق وبنفس الوسائل التي يصل بها
إلى الأجسام ؟ ! والسلطان بطبعه طاغية ، لا يقره في حدوده ، ولا يرده
عن الظلم والجور إلا سلطان مثله يعدله ويوازنه ويحول بينه وبين الجموح .
فهل تعرف سلطاناً يعدل سلطان قيصر ؟ وهل تعرف قوة توازن
قوة قيصر ؟ وهل تعرف في الأرض فرداً أو جماعة أو مظهراً من مظاهر
الطبيعة يستطيع أن يرد قيصر إلى الحد إن هم قيصر أن يتجاوز الحد ؟ !
قال كلكراتيس : فإن أصحاب هذا الدين الذي يفرضه علينا
قيصر يزعمون أن هذه القوة ليست في الأرض ولكنها في السماء ، وأنها

أضحى ملكاً وأعظم بطشاً وأوسع سلطاناً من كل ما يملك قيصر ،
وأنها خليقة أن تكبحه إذا جمع ، وترده إذا طغى .

قال أندروكليسي : هذا كلام يقال ، وما أستطيع أن أومن
لهذه القوة حتى أراها ، وما أستطيع أن أذعن لما حتى أرى أثراً من
آثارها أو مظهراً من مظاهرها . فما أكثر ما يطغى قيصر ويبغى !
وما أكثر ما يجور عماله ويظلمون ، فلا تردهم هذه القوة ولا تصدّهم ،
وكأنها تدفعهم إلى البغى دفعاً ، وتمد لهم أسباب الظلم والجور !
قال حاكم المدينة وعلى ثغره ابتسامة لا تخلو من سخوية :
فإنكما تجهلان من هذا الأمر أكثر مما تعلمان .

تجهلان أن بين الأرض والسماء حلفاً منذ فُرض الدين الحديد على
الناس ، وأن قيصر يمثل هذا الحلف وينطق عنه ، فإذا أجاز قيصر
أجازت السماء ، وإذا منع قيصر منعت السماء ، وإذا حلّ قيصر
أو عقد فإنما يحلّ ويعقد بأمر السماء . وما ينبغى أن تنكرا من ذلك
شيئاً . وقد كان أمر قيصر في ظل الدين القديم على مثل ما هو عليه
في ظل الدين الجديد : كان ينطق بلسان « چوبتير » ، ويبطش
بيده ، ويمزق بسلاحه ، ويحرق بناره أولئك المستضعفين من النصاري ،
فهو الآن ينطق بلسان المسيح ، ويبطش بيده ، ويصبّ بأسه على
الأتنيين .

قال كلكراتيس : إن دلّ هذا على شيء فإنما يدلّ على أن
قيصر إنما ينطق بلسان نفسه ، ويبطش بيد نفسه ، ويصبّ على الناس
ظلم نفسه وجورها ! وما كان « چوبتير » ليكلف القياصرة ما تكلفوا

من شطط . ولست أعرف المسيح ، ولكنى ما أظنه أقل رحمة للناس ورفقاً بهم من «جوبتر» ، وما أرى إلا أن قيصر يعنى علينا ويعنى على آلهتنا كما يعنى على إلهه هو .

قال أندروكليس : فالأمر كما تقول . ولكن ما الذى تستطيع أن تفعل ؟ وما الذى تريد أن تفعل ؟ إنك لا تستطيع أن ترد على قيصر أمره ، ولا أن تلتى بغيه وعدوانه بما يشبههما من البغى والعنوان . فليس لك إلا أن تدعن فتحيا ، أو تأبى فتموت .

قال حاكم المدينة : والخير فى الإذعان ! لأن الحياة خير من الموت ، فنحن نعرف الحياة ، ونبلو لذاتها ، ونلوق آلامها ، ولا نعرف من أمر الموت وما وراءه شيئاً . ويجب أن تكون للآلهة أسرار لا تستطيع عقولنا أن تبلغها أو ترقى إليها . فما لإله قيصر لا يصد قيصر عن ظلمه ! وما لآلهتنا لا تحميننا من هذا الظلم ؟! كأنما انصرف إله قيصر وانصرفت آلهتنا عن الأرض وما يقع فيها من بغى وعدوان ، وعن الناس وما يجنى بعضهم على بعض من ظلم وجور .

قال أندروكليس : وما يدريك ؟! لعل ما يحدث فى السماء ونجومها ليس خيراً مما يحدث فى الأرض ، ولعل وراء هذا الكون من عظيم الأمر ما يشغل الآلهة عما يحدث فيه من الأحداث .
قال كلكراتيس : وإذا ؟!

قال حاكم المدينة : وإذا فلنلقَ الحياة كما نستطيع ، ولنحتمل منها ما نطيق ، ولنأخذ من لذاتها ما يتاح لنا ، ولنؤد إلى قيصر ثمن هذه اللذات طاعة وإذعائاً نُخلص فيهما ما وسعنا الإخلاص ،

ونناق فيهما إن اضطررنا إلى التناق .

قال كلكراتيس : فتحن في ذلك منذ عرفنا أنفسنا لا نعصي لقيصر أمراً ، ولا نخرج عما رسم لنا من الحدود .

قال الحاكم : بل أنتم تعصيان له بعض الأمر ، وتخرجان عن بعض ما رسم لكما من الحد . فأنتم لا تشهدان الصلاة ، ولا تختلفان إلى الكنائس ، ولا تُظهريان تعظيم المسيح ، ولا تقدمان إلى القسيسين والبطارقة ما يصلح رأيهم فيكما . وقد كنت مثلكما حيناً من الدهر ، وما أظني خالفكما فيما أخالفكما فيه من ذلك إلا لأن المنصب يفرض على أن أشهد الصلاة وأختلف إلى البيع ، وأظهر للدين ورجاله ما أظهر من التعظيم . وقد تعنى ذلك كما تريان ولم يضرتني شيئاً . ثم أطرق صامتاً فأطال الإطراق ، ثم رفع رأسه وقال مبتسماً : وأحسبه تفعلكما أيضاً . فما يمنعكما أن تذهبا مذهبي ، وتسيرا سيرتي ، وتعلنا لقيصر ما يريد إعلانه ، وتضمرا لأنفسكما وأهلكما ما تحبان ! إنكما لا تتكران ذلك من أمري ، فما لكما لا تعرفان منه مثل ما أعرف ، ولا تأتيان منه مثل ما آتي ؟ !

قال أنثروكوايس : لأننا لا نريد أن نرتقي إلى مثل ما رقيت إليه من منصب ، ولا أن نظفر بمثل ما ظفرت به من قوة وسلطان ، ولأن مالنا يغنينا ، وجاهك يحميننا ، وهذه الحياة ترضينا .

قال حاكم المدينة : فإن عجز جاهي منذ الآن عن حمايتك ؟

قال كلكراتيس : فإنه النذير بالقطيعة إذا .

قال حاكم المدينة : لا تتعجل القضاء على صديقك ، ولا تُسرع

إلى سوء الظن به ! فإني لا أريد قطيعتكما ولا أقدر عليها ، وإنما هو
خطب ألم ، فأنا أستعينكما عليه ، وأستشيركما فيه ، فأعيناني وأشيراً
عليّ . وإنكما لتعلمان أني ما أملك لكما ولا لنفسى من غضب قيصر
شيئاً . فلنجمع أمرنا ، فإما طاعة لقيصر من ثلاثتنا ووراءها ما ووراءها من
الخطوة والنعم ، وإما معصية لقيصر من ثلاثتنا ووراءها ما ووراءها
من البؤس والضر ومن عذاب قد ينتهى إلى الموت .

قال أندر وكليس ضاحكاً وهو ينظر إلى زجاجات وأقداح قد
وضعت من القوم غير بعيد : ما أرى إلا أنك قد بدأت تديقنا
هذا العذاب . فهذه الزجاجات القائمة تدعوننا ، وهذه الأقداح
المصفوفة تغرينا ، وأنت تشغلنا عنها بما نخوفنا من أمر قيصر وبأسه
بعد أن حَرَقْتَ أجوافنا بما قدّمت إلينا من طعام ، وجففت حلوقنا
بما صببت علينا من نذير . فكنسق هذه الأقداح الظامئة ، ولنطقُ
هذه الأجواف المحترقة ، ولنرطبُ هذه الحلوق الجافة ، ولنقدم الطاعة
إلى دينوزوس في ظلمة الليل ، والإذعان إلى قيصر في وضح النهار .
ثم نهض فخيل شيئاً من رقص دينوزوس ، وأسرع إلى المائدة
فلاً قدحاً قدّم منه قطرات إلى دينوزوس ، ثم صبه في فمه صبباً ،
ثم ملأ الأقداح الثلاثة فقدم إلى صاحبيه ، وعاد إلى مجلسه وفي يده
قلحه يحسو منه حسو الطير ويقول : لست أرى بهذه القسمة بأساً :
الليل لدينوزوس ، والنهار لقيصر . وإن شئنا فليكن النهار قسمة
بين قيصر والمسيح : لقيصر شطر النهار ، وللمسيح شطره الآخر .
ولكنكما كفتما تقولان إن بين قيصر والمسيح حلقاً فلا حاجة إذاً إلى

أن نقسم النهار بينهما ؛ فلنقدّم النهار كله إلى قيصر فيرضى المسيح ، كما كان عامة الناس يقدمون عمرهم كله لقيصر فيرضى « چوبتر » . أما أنا فهذا الرأي يرضيني كل الرضا ، يحقق آمالي وآمالي ، ويرضى حاجاتي ومنافعي ، ويرضى بنوع خاص رأبي وفلسفتي . فما يعنى أن أكون من عامة الناس حين تغمرنا الشمس بضوئها هذا الفظيع الذى لا يخفى عليه شيء ولا يستتر من دونه أحد ، وأن أكون من خاصتهم حين يغمرنا الليل العطوف الأمين بظلمته الحصينة المتينة التى لا تُظهرنا إلا على نفوسنا ، التى تتيح لشخصياتنا أن تسترد ما فقدت من حرياتنا فى ضوء النهار ، التى لا يلمع فيها إلا هذه الأشعة الضئيلة التى ترسلها إلينا النجوم كأنها التحية الخفية يرسلها الحبيب إلى عاشقه بآمن من الرعباء . قال ذلك ثم أفرغ قدحه فى جوفه ، ونظر إلى صاحبيه فى شيء من الإشفاق والازدراء وهو يقول : ما أقل نشاطكما للشراب ! وما أشد فتوركما عن دينوزوس ! ما كنت أحسب أن خوف قيصر يغنيكما عن نبيذ ساموس . أفرغاً قدحكما فإن جوفى يحرقه الصدى . وما أدرى فيم هذا القصر الضخم ، والمنصب الضخم ، والثراء العريض؟ أهلم يا سيدى فادع لنا بعض إمانتك يغنين ويرقصن ويطنن علينا بالأقداح والأكواب ، فما عبئ دينوزوس بجير من الغناء والرقص والشراب .

قال كلكراتيس فى هدوء يملؤه الجلد وقد غشى وجهه العبوس : ليس الأمر من اليسر بحيث تظن . وما أرى إلا أن خوف قيصر هو الذى يدفعك إلى الشراب ثم إلى السكر .

قال أندروكليس : أخطأت يا صديق ! سأخاف قيصر طول
النهار ، فلأمنه أثناء الليل . وإنما أَدْعوكما إلى دينوزوس لأننا قد
عدونا عليه ، وجرنا عن طريقه ! فنحن مدينون له بالليل كله ، وقد
صرفنا عنه بعض هذا الليل إلى قيصر ، فلنحذر أن ينكر ذلك من
أمرنا ، فيسخط علينا إله الليل دينوزوس ، وإله النهار قيصر .

وكان الصديقان قد أفرغا قُدحيهما ، فنهض أندروكليس نشيطاً
مرحاً فلأ الأقداح الثلاثة ، وقال لحاكم المدينة : أتريد أن تدعو
إمءاك أم تأذن لي في أن آتي هذه الحركة التي تأتيا فيستجيب لك
الخدم ؟ إنما هي يد تضرب يداً فيصل الصوت إلى من ندعو .

قال كلكراتيس : مهلاً ! فإني في حاجة إلى لحظات أخلو
إليكما فيها ، فما أحب أن تفرق وأنا أطوي عنكما بعض الأمر .

قال حاكم المدينة : وما ذاك ؟

قال كلكراتيس : ذاك أني لا أرى رأيكما ، ولا أعرف لقيصر
سلطاناً على قلبي ، ولا أحب أن أعبد إلهاً لا أعرفه ، ولا أريد أن
أضيف إلى آلهتي إلهاً جديداً ! لأنهم يكفونني ويغنونني من كل
إله . والآن فادع إمءاك إن شئت ، ولنعبد دينوزوس على ما بيننا من
اختلاف الرأي : أخلص له ولأصحابه من أهل الأوب ، وتشركون
معهم إلهاً جديداً أو إلهين جديدين .

قال حاكم المدينة : فإن هذا لا يحلّ المشكلة ، ولا ينهي
بنا إلى غاية نرضاها .

قال كلكراتيس : مستأنف الحديث في ذلك إذا كان الغد ،

فدعنى أفكر ، وادع إماءك وندماءك ! فقد جُرنا وأسرفنا فى الجور
على دينوزوس .

ودق حاكم المدينة يداً بيد ، فما هى إلا لحظات حتى فُتحت
الأبواب ، وانفجرت الأستار ، وأقبل الجوارى حساناً صباحاً يحملن
فنون الزهر ، وألوان الفاكهة ، ويتهبأن للرقص والغناء .

ولم يجلس كلكراتيس لأصدقائه من الغد كما تعود أن يفعل وجه
النهار من كل يوم ، ولم يفرغ لذلك العبد الذى جعله على ثروته
وخزائن ماله ، ولا لهذا العبد الذى وكل إليه تدبير القصر وأمر الخدم
والرقيق ، كما تعود أن يفعل آخر النهار من كل يوم ! بل لم
يستطع عماله وأصحاب تجارته الواسعة أن يرفعوا إليه شيئاً من أمرهم
كما تعودوا أن يفعلوا كلما تولى النهار ؛ لأنه احتجب ذلك اليوم منذ
رجع من قصر الحاكم قبل أن يسفر الصبح بقليل . أوى إلى مضجعه
فاستوفى حظه من راحة هادئة ونوم مطمئن ، ثم نهض مع الظهر
فأدّى لجسمه الذى تعود أن يؤديه له من العناية والرياضة ، ثم خلا
إلى نفسه يفكر فيما كان بينه وبين صديقيه من حديث ، ويدير رأيه
فيما عسى أن يتخذ من سيرة ويسلك من طريق . وكان صادقاً كل
الصدق مصمماً كل التصميم حين أعلن إلى صديقيه فى لهجة الخازم
العازم أنه يأبى أن يقسم حياته بين قيصر وبين ضميره ، وأن يُظهر
لقيصر ما يرضيه من الإيمان بالدين القائم ، ويُخفى فى نفسه ما يرضيها
من الإخلاص للدين الوثنى القديم . وكان يعلم حق العلم أن صديقه
الحاكم لا يتقدم إليه فى مصانعة قيصر ومواعدة السلطان إلا مؤثراً له
بالخير ، مشفقاً عليه من الشر . ولعل صديقه الحاكم كان يحتاط
لنفسه بعض الشيء حين كان ينصح بالمصانعة والمواعدة . ولكن أى
غرابة فى هذا وصديقه إنسان فيه ضعف الناس وقوتهم ، وفيه أثر

الناس وإيثارهم ؟ !

والشئ الذى ليس فيه شك ولا ريب هو أن صديقه كان مخلصاً صادق النية حين أعلن إليه وإلى صاحبه أنه يستعينهما على خطب ألم ، ويستشيرهما فى حادث طراً ، ويريد أن يكون معهما على طاعة قيصر إن أزمعا الطاعة ، وعلى عصيان قيصر إن أرادا العصيان .

ولو أن أندروكليس كان صُلبَ الرأى جرىء القلب مستمسكاً بتراث آبائه حريصاً على حقه فى حرية الضمير ، لاستطاع الصديقان أن يحملا صديقهما الحاكم على أن يشاركهما فى الرأى ، ثم لاستطاع الثلاثة الأصدقاء أن يُحكّموا أمرهم بينهم ، وأن يلتمسوا لأنفسهم مخرجاً من هذا الضيق ، يلتمسون هذا المخرج بالحيلة أو بالضعف .

ولكن أندروكليس رجل لين النفس ، فاتر الرأى ، لا يخل بدين قديم أو جديد ، ولا يقلر تراث الآباء ولا كسب الأبناء ! بل هو لا يفكر فى أمس ولا فى غد ، وإنما يفكر فى يومه الذى يعيش فيه ، يُعرض عما مضى ، ولا ينتظر ما سيأتى ، ولا يؤمن إلا بما يرى ، وبما يرى فى الساعة التى هو فيها . فالله الذى يعبده ويُخلص له هو نفسه ، يبتغى لها اللذة والنعيم ، ويدفع عنها الألم والشقاء ما وجد إلى ذلك سبيلاً . وهو من أجل ذلك مضطرب الرأى أو لا رأى له ، ينكر اليوم ما عرف بالأمس ، وقد يعرف الآن ما كان ينكر منذ حين . وقد آثر أندروكليس العافية ، وأشار بالطاعة والإذعان ، فوافق رأيه ومشورته هوى الحاكم ، وإيثاره للراحة والهدوء ، وحرصه على الاستمتاع ببلدة الأمن والقوة والسلطان والجاه ، والاندفاع مع الأمل

القوى البعيد الذى لا يعرف حداً يقف عنده ولا غاية ينهى إليها . فلم يبق بعد اتفاق هذين الصديقين لكلكراتيس إلا أن يختار بين اثنتين : فإما أن يشايح صديقيه على ما أحبا ، وليس إلى ذلك من سبيل ؛ لأنه لا يريد ، ولو أراد لما استطاعه ولا قدر عليه . وإما أن يخالف صديقيه ، ولكن على ألا يؤذيها ولا يسوءهما ولا يعرضهما لشر يأتيهما من قبل السلطان ، ولا يُلقى فى رُوعهما أنه مقاطع لهما أو ساخط عليهما ! فهما لا يستحقان مقاطعة ولا سخطاً ، وقد نصحا له جهدهما ، وآثراه بما يؤثران به نفسيهما . وهذه الخطة هى التى آثرها كلكراتيس ، ولكنه يلتمس إليها السبيل ، ويتغنى إليها الوسيلة ؛ فيفكر ويظيل التفكير دون أن يهتدى إلى المذهب الذى يريح منه صديقيه من غير أن يشق عليهما أو يسوق إليهما بعض ما يكرهان . وقد فكر فى الموت . وأى شيء كان أيسر من التفكير فى الموت بالقياس إلى أولئك المثقفين المفلسين من اليونان فى ذلك العصر ، ولا سيما حين كانوا يحتفظون بالوثنية أو بظل منها ! فقد علمهم شيوخهم وأساتذتهم من أتباع «أبيقور» وأصحاب الرواق أن حياة الفرد ليست شيئاً ، وأن موت الفرد ليس شيئاً ، وقد ضربت لهم الأمثال مرات ومرات ، فما أكثر أولئك الذين كانوا يكرهون الحياة فيخرجون منها مزدربين لها أشد الازدراء ، مكبرين لأنفسهم أشد الإكبار ! يرون شيئاً من العزة فى أنهم دخلوا الحياة غير مريدين ولا مختارين ، فأتاحت لهم لذاتها ، وفرضت عليهم آلامها وهم يستطيعون أن يعرضوا عن هذه اللذات الحلوة ، وأن يتمسكوا بهذه الآلام المرة ، كما يستطيعون

أن يجتثوا حياتهم من أصلها اجتنائاً فيلغوا اللذات والآلام جميعاً ،
ويثبتوا لكل إنسان ولكل إله ولأنفسهم قبل كل إنسان وكل إله
أنهم أكبر من اللذة ، وأكبر من الألم ، وأكبر من الحياة نفسها .
نعم ! فكر صاحبنا في الموت واستحضره ، وكاد يطيل الوقوف
عنده ، وكاد يأخذ في تدبير أمره وأمر الذين سيركهم من ورائه
وما سيورثهم من ثروة ضخمة وغنى عريض . ولكنه أحس أن نفسه
لا ترغب في الموت ، ولا تطيب عن الحياة ، لا إشفاقاً من الموت ،
ولا تهالكاً على الحياة ، بل رغبة في المعرفة ، واستزادة من لذة العلم .
فالموت ليس شيئاً ، والحياة ليست بذات خطر ، ولكن بين هذا
الموت وهذه الحياة شعوره هو بأنه موجود ، وعلمه هو الذى يتزايد
بين حين وحين ، فيظهره على ما كان ، وعلى ما هو كائن ، وعلى
ما سيكون . ولو أنه استيقن أن وراء الموت علماً ، أو أن وراء
الموت شيئاً خليقاً أن يُعلم ، لما تردد في الإسراع إليه ! ولكنه لا يعرف
ما وراء الموت ، بل هو يقطع بأن ليس وراء الموت علم ولا عالم ولا معلوم
والموت آت لا محالة ، فما له يتعجله ! والموت يسعى إلى الإنسان ،
والإنسان مدفوع إلى الموت دفعاً ، فما باله لا ينتظر هذه الساعة التى
لا بدّ من أن تلمّ به ! وما باله لا يستمتع بهذه اللذة الغالية النادرة
التي لا تُقدّر ولا تقوّم : لذة العلم والمعرفة ! وهو يفكر في هذا كله
متعمقاً له ، مستغرقاً فيه ، يسأل نفسه : أى الأمور أهون لقاءً
وأيسر احتمالاً : إرضاء صديقيه بطاعة قيصر ، وتكليف ما يقتضيه
ذلك من النفاق ، أم إسخاط صديقيه وإسخاط قيصر والتعرض لما

يستتبعه ذلك من آلام النفس وأحزان القلب وألوان الأذى ، أم إراحة نفسه وإراحة صديقيه وإراحة قيصر من هذا كله باستقبال الموت والإسراع إليه ؟ ثم يخطر له أن أكثر الناس مستيقنون بأن الموت لا يختم وجود الإنسان، وإنما ينقله من طور إلى طور ، ويخرجه من حياة ليدخله في حياة أخرى . وهو يستعرض في هذا أحاديث الناس من اليونان وغير اليونان على اختلاف أزمانهم ، وعلى اختلاف هذه الأحاديث فلا تطمئن نفسه إلى شيء منها ، ولا يرى فيها إلا ألواناً من الأحلام ، وفنوناً من التماس العزاء . ثم يذكر «سقراط» ومصرعه وأحاديثه ، وما كان بينه وبين أصحابه من حوار في خلود النفس ، وإذا هو قد نسي قيصر ونسي المسيح ونسي صديقيه ، ولم يذكر إلا شيئاً واحداً هو لذة هذا الحوار، وعذوبة هذا الحديث الذي قرأه مرات لا يحصيه ، فلم يؤمن به ولم يطمئن إليه ، ولكنه مع ذلك لا يزداد إلا كلفاً بقراءته ، وحرصاً على الاستمتاع بما تثير هذه القراءة في نفسه من لذة خالصة لا يُفنيها الاستمتاع بها وإنما يزيدا ويضاعفها ، كأنها الكثر لا يفنيه استغلاله ، وإنما يُغنيه وينمي ، وإذا هو يعمد إلى « فيلون » وينقطع إلى قراءته عن كل خاطر ، وعن كل شيء ، وعن كل إنسان .

٣

ولكن عبداً يدخل مترقماً ، وبنه سيده متلطفاً ، وينبئه أن أندروكليس يستأذن عليه . ولست أدري أَرْضَى صاحبنا عن مقدم صاحبه الذى كان يحبه ويؤثره ، أم سخط على هذه الزيارة لأنها ستصرفه عن صحبة أفلاطون الذى لم يكن يعدل بصحبته شيئاً . ولكنه أذن لصديقه من طرف اللسان بالدخول ، ثم مشى فى قراءته لم ينتظر صديقه ، ولم يخفَ للاقائه ، ولا تهباً لا استقباله . ويدخل الصديق فيراه عاكفاً على كتابه ، ماضياً فى قراءته ، فيمهله حيناً ، ثم يمهله حيناً ، ثم يسعى إليه فيمسه مساً رقيقاً ويقول له فى صوت عذب : ما أرى إلا أنا نتهياً للموت ! فقد سنّ لنا القلماء قراءة « فيدون » قبل أن نغمد الخناجر فى صدورنا .

ويسمع كلكراتيس حديث صاحبه ، فينهض إليه مدعوراً كأنما أقبل من نوم عميق تضطرب فيه أجمل الأحلام وألذها . نهض إليه مدعوراً وهو يقول : ها أنت ذا ؟ ! لقد أذكر أنى أنبتت بمقدمك ، وكنت أريد أن أفرغ من بعض الحديث قبل أن أخفّ إليك ، ولكنك تعلم سحر أفلاطون .

قال أندروكليس : أعلمه حقّ العلم ، وأجتنب النظر فيه كلما احتجت إلى نفسى ورأى وبصيرتى ، ولا أقبل عليه إلا حين أريد أن أستريح من هذا كله . ثم أنا على كل حال لا أقرأ « فيدون » ،

وما أعرف أئى نظرت فيه منذ تركت مجالس الدرس . ذلك لأنى لم أفكر فى الموت بعد ، وما أحب أن أفكر فيه ، وما أريد أن ألقاه إلا فجاءة وعلى غير موعد أو انتظار . وإنك لتعلم أئى لا أعدل بالفجاءة شيئاً ، وأئى لا أكره شيئاً كما أكره التدبير والتوقع وتقدير العواقب . وإذا أردتئى على أن أنبتك بذنب الناس والآلهة والكون عندئى ، فهو أنهم جميعاً قد تواطئوا على أن يلقوا فى صدورنا ، ويطبوعوا فى قلوبنا ونفوسنا ، أن الموت ضربة لازب ليس لنا عنه منصرف . فهذا هو الشئء الوحيد الذى أعلمه علم يقين ، وأنتظره على شدة كرهئى للانتظار . وما أشدّ ما كنت أحب أن تُخدع عن الموت ، وُنغَر عن مقدمه ، ونجهله الجهل كله ، حتى نُختطفَ اختطافاً على غير علم به ولا توقع له !

أليس من أجمل الأشياء وأحسنها فى نفوسنا أننا لانعرف ما يضمّر الغد ، وما نخبئُ لنا الساعة المقبلة التى لم نبلغها بعد ؟ ! صدقئى أن حظ الإنسان من هذا الوجود ردىء حقاً ! فقد كان يجب أن يعلم كل شئء كما يعلم الآلهة أو أن يجهل كل شئء كما يجهل الحيوان ، فأما أن يضطرب بين هاتين الطبقتين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فشىء لا يطاق .

قال كلكراتيس . ماتزال مشغولاً بالمزاح ، كلفناً بالدعابة والعبث . قال أندروكلييس : برئت إليك الآن من المزاح ، وبرئت إليك من الدعابة والعبث ، إنما أعرض عليك دخيلة نفسئى ، ولو استطعت أن أخرج قلبئى من بين جنبئى لتنظر فيه لما رأيت فى صفحة

من صفحاته مزاحاً ولا عبثاً، إنما هو الجلد كل الجلد ، والحزن كل الحزن ؛ لأننى لم أكن إلهاً ولا حيواناً . وهذا وحده هو الذى يجب إلى دين دينوزوس ! لأنه بما يُشبع فينا من النشوة بهذا الشراب الذى علمنا اعتصاره من الكرم يُرضينى كل الرضا ؛ لأنه يرفعنى إلى طبقة الآلهة حيناً ، ويخفضنى إلى طبقة الحيوان أحياناً ، ويخرجنى دائماً عن هذا الطور السخيف ، طور الإنسان الذى فُطر مناقماً بطبعه ، له عقل يقربه من الآلهة ولكنه قاصر ضعيف ، وله جسم يقربه من الحيوان ، ولكن العقل يفسد عليه غرائزه فيحول بينه وبين راحة الحيوان .

ومن هنا لا أدرى ما الذى يُغضبك على صديقنا وعلى . وينأى بك عن أن ترى رأينا ، وتذهب مذهبنا ، وتقبل مشورتنا ، فتجعل النهار لقيصر والسيح ، وتجعل الليل لنفسك ولدينوزوس . إنا لم نُشر عليك بيدع من رأى ، ولم نكلفك كما لم نكلف أنفسنا ما يخالف الطبيعة التى فُطرنا عليها . وما أشك فى أن « جوبتير » وأصحابه من آلهتنا الأعزاء لا يتكرون علينا ذلك ولا يلوموننا فيه . وهبهم فعلوا ، فإن جواى لم حاضر ، فهم المسئولون لأنهم خلقونا مناققين ، وجعلوا لنا جسم الحيوان القوى ، ونفس الإله الضعيف . ولو قد أرادوا لجعلونا أمثالهم آلهة لا ندين بالطاعة لأحد إلا لكبيرنا « جوبتير » . ولو قد أرادوا لجعلونا فصائل من الحيوان ، لا يتقدم إليها قيصر ولا كسرى ولا فرعون بعبادة هذا الإله أو ذاك . ومن يدرى ؟! لعلهم لو جعلونا فصائل من الحيوان لأحسنوا إلينا أكثر مما تظن ! فن الحيوان ما يتقدم له الناس بأنواع العبادات ، وفتون الطاعة ، وضروب القربان ، ومن

يدري! لعلنا لو كنا حيواناً أن نعبداً في طرف من أطراف الأرض ،
وأن يقتتل الناس حول ديننا وعبادتنا ، كما يقتتلون حول دين المسيح
وعبادة « أبلون » . وأنا بالطبع لا أتحدث إلا عن اليونان ولا آسى إلا
لل يونان ؛ فال يونان وحدهم هم الناس ، وما يعبأ الآلهة بغيرهم من الشعوب .
قال كلكراتيس : ألم يتعبك هذا الحديث الذى لا ينقطع ،
وهذا الهراء الذى لا ينقضى ؟ ! أتراك تقدمت إلى « دينوزوس »
بشيء من العبادة فأفرغت في جوفك بعض الأقداح التى تطلق لسانك
بهذا الهذيان ؟ ! ولكنك قد جعلت النهار لقيصر ، أفتراك جررت عليه
وسرقت منه بعض النهار ؟ !

قال أندروكليس : ثم تزعم بعد ذلك أنى أمزح وأهو وأنت المغرق
فى المزاح واللهو ! فأنا قبل كل شيء لا ألغى ولا أهذى ، وإنما أتحدث
إليك بالجد كل الجد ، وأنا بعد ذلك لم أجُرُّ على قيصر ولم أسرق منه
بعض النهار ! لأن قيصر لم يحرم الخمر ، ولا ينهى عن التهام الأقداح .
وأنا أستطيع أن أعرف لقيصر حقه ، وأن أرضى مع ذلك « دينوزوس »
أعلن حب قيصر ، وأمر طاعة دينوزوس فى الليل والنهار جميعاً . ثم أنا
بعد هذا وذلك لا أتحرج من الجور على قيصر إذا أمنت شره ومكره .
ولعلى أجد فى خداعه والعبث به بعض اللذة . فقد علمنا خداع الآلهة
والعبث بهم ، فكيف برجل مثلنا لا يمتاز منا إلا بهذه الحماقة التى تخيل
إليه أنه رجل ممتاز ، وأنه ليس كغيره من الناس .
صدقنى أيها الحبيب ، أرح نفسك من اليقين ! فإن اليقين
لا يليق بالناس ، وإنما يليق بالآلهة . والحياة كلها لا تستحق اليقين ،

ولا تعدل ما يكلف أصحابه من الألم والحسرة .
إن اليقين ثباتٌ واستقرار ، وإن الحياة مُضَى وزوال . فاستقبل
الحياة المتنقلة بما يلائمها من هذا الشك الذى ينتقل نفسك معها من
طور إلى طور . وما لى أكشف لك عن خبيثة نفسى ، وما أظنك إلا
عرفتها منذ اتصلت بيننا العشرة ، وطالت بيننا المخالطة ! فأنا أشير عليك
وعلى صديقنا بأن نجعل جهر أمرنا لقيصر وإلهه الحديد ، وسره لدينوزوس
وأصحابه القدماء . وما أظن أنك ترى هذه المشورة تصدر عن رجل يؤمن
بالدين القديم أو بالدين الحديد . فطبيعة الدين لا تحتل شركة
ولا اقتساماً . ومن أباح الشركة فى الدين فقد أهدى فيه . وأنا أبيع هذه
الشركة ، وأكثر المعاصرين لنا يبيعونها ويتخذونها لأنفسهم مذهباً .
فالدين عندى ، كما هو عند هؤلاء المعاصرين ، وسيلة لا غاية ،
وطريق لا غرض . طاعة قيصر وإلهه تكفل لنا الأمن على الحياة والثروة
والأمل فى المجد والجاه والسلطان . وطاعة دينوزوس وأصحابه تكفل لنا
لذة الحياة وزعيمها وإمتاع نفوسنا وأجسادنا بما تثيره اللذة والنعيم من
ضروب الإحساس والشعور . وما أظنك تصدق أن أمثالنا من الفلاسفة
المتفكرين يستطيعون أن يطمئنوا إلى « چوبتير » وأصدقائه ، إلا أن
يلغوا عقولهم إلغاءً ، أو يُردوا إلى سذاجة القدماء ردّاً ، ويعودوا
كأولئك الذين كانوا يعيشون بغرائزهم قبل أن ينشأ العقل وقبل أن يُحدث
الفلسفة للناس .

فالوثنية الآن سبيل اللذة وراحة النفس . والمسيحية الآن سبيل
المجد والثروة والاستعلاء فى الأرض . فكن كغيرك من الناس ،

وكن شجاعاً كصاحبيك ؛ فهما قد عرفا طبيعة الأشياء والناس ، ويريدان أن يلاتما بين حياتهما وهذه الطبيعة . وهما يصارحان أنفسهما بهذه الملاءمة ، ولا يريدان أن يتناققا مع أنفسهما ! لأنهما يريدان في النفاق مع قيصر وإلهه ورعيته الكفاية كل الكفاية .

قال كلكراتيس وقد جعل الغيظ يسرى في نفسه ويظهر في صوته قليلاً قليلاً : لست أدري لإلام تريد بكل هذه البراعة التي تصطنعها من حديثك كأنك أحد السفسطائيين . وما أظن أن «جورجياس» كان يستطيع أن يزين الرياء والنفاق والمداراة والمجاراة ، والهالك على اللثة ، وإيثار العافية ، وموادعة الناس ، ومصانعة السلطان بغير مما زينها . ولكن ما رأيك في أنى أكره هذه الحصال كلها أشد الكره ، وأمقت الأخذ بها فضلاً عن الاندفاع إليها أشد المقت ، ولا أرى أن أكون متناقفاً مع نفسي ، ولا أرى كذلك أن أكون متناقفاً مع الناس ، لا أودع غيري ، وإنما أريد أن أكون حرّاً طلقاً ، لا أطمئن إلى السجن ، ولا أذعن للقيد . وأنا أعرف أن هذه خطة تملؤها الأخطار ، ولكنى لا أكره الأخطار ولا أهابها ، وإنما أحتقرها وأزدريها . أليس أقصاها وأقساها ، وأشدّها ثقلاً ، وأمرّها مذاقاً ، هو الموت : فإذا كنت لا أحفل بالموت فأنى خليق ألا أحفل بما هو أيسر منه شأنًا وأهون منه أمراً .

وأنا مثلك ، لم أطمئن قط فيما بيني وبين نفسي إلى آهتنا القلعاء ، ولا إلى وثنيتنا الموروثة . وإنما اتخذتهم واتخذتها رمزاً لهذا اللون من الحياة الذي أرضاه وآلفه ، ولم يخطر لي بعد أن أتحوّل عنه ، ولا أريد أن أتحوّل عنه ! لأن في هذا التحوّل رضا قيصر والأمن من معرفة الناس .

فأنا إذا لا أثور حفاظاً للآلحة ولا دفاعاً عن الدين ، وإنما أثور
حفاظاً لنفسى ودفاعاً عن حريتي . وقد يكون من الحق أننا ظلمنا
حين لم نُنشأ آلهة ولم نُخلق من طبقة الحيوان ، وإنما جُعلنا شيئاً
بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . ولكن ما رأيك في أنى لا أكره
هذه الطبيعة المذبذبة ولا أضيع بها ، وإنما أحبها وآلفها ، وأريد أن
أستغلها إلى أقصى حدود الاستغلال ، فأمنح عقلى كل حظه من
الحرية ، وأمنح جسمى كل حظه من اللذة ، وأحتمل نتائج هذه
اللذة وتلك الحرية مهما تكن قاسية ، ومهما تستتبع من آلام .

ما لقيصر زمان ! إني لم أنازعه في عرشه ، ولم أمانعه في ملكه ،
ولم أشاركه في قصره ، ولم أبتغ إليه وسيلة ، ولم أتمس عنده حظوة ،
ولم أسأله منصباً من مناصب الحكم ، ولا منزلاً من منازل الشرف .
بل لم أقم دون ظلمه وجوره حين صبهما على ، فأخذ من مالى غير
حقه ، وكلفنى ألواناً من العمل ليس له أن يكلفنى منها شيئاً .

أفلا يرضيه منى هذا كله ؟ ! أفلا يقنعه منى أن أعطيه كل
ما أعطيته في غير مقاومة ظاهرة ولا كراهة بادية ، حتى يأبى إلا أن يدخل
بينى وبين نفسى ، ويفرض على شعوراً لا أجده ، ودينياً لا أحبه ؟ !
ماذا أقول ؟ ! إنه يفرض على شعوراً لا يجده هو ، وإنما يتكلفه
تكلفاً ، ودينياً لا يؤمن به هو ، وإنما يتصنعه تصنعاً . وما أبى عليه
كما لا أبى عليك وعلى صديقنا أن تناقروا في الدين وفي غير الدين
إثارةً للعافية ، أو استعادةً من لذات الحياة ونعيمها . وإنما
أبى عليه وعليكما أشد الإباء ، أن تحملوني على ما تحبون أن تحملوا

أنفسكم عليه من هذا النفاق الذى يستتبع إلغاء العقل ، وابتذال القلب ، وبيع الضمير .

قال أندروكليس : إنك إذأً لثائر يا صاحبي لا على قيصر وحده ، بل على الناس جميعاً .

قال كلكراتيس : فإن أعجبتنى هذه الثورة ، فمن يستطيع أن يمنعنى منها أو يردتى عنها ، دون أن يكون ظالماً لى جائراً على ! ثم إن أعجبتنى أن أمتنع على الظلم والجور ، وأوثر الموت على حياة لا تطيب إلا بهما ، فمن يستطيع أن يمنعنى من الموت أو يردتى عنه !

قال أندروكليس : لا أحد ! ومن أجل ذلك كنت تفكر فى الموت . ومن أجل ذلك كنت تقرأ فى هذا الكتاب ، تريد أن تزين لنفسك ما زينه سقراط من الخلود ، قبل أن تتجاوز هذا الباب الذى يقوم بين الحياة والموت .

قال كلكراتيس : أما أنى فكرت فى الموت فهذا حق ، ولست بدعاً من الذين فكروا فيه قبلى . ولئن تعجلته فلن أكون بدعاً من الذين تعجلوه . وأما أنى التمتت العزاء فى جوار « فيدون » ، فهذا خطأ ! لأننى لم أتمسب عزاء ، ولم أطلب خلوداً ، ولم أفكر فيه ، وإنما تحدثت إلى نفسى بالموت ، ثم أعرضت عن هذا الحديث ! لأنى خطب قيصر أهون من ذلك ، ولأننى ما يزال لى فى الحياة أرب . ثم ذكرت هذه الآيه من آيات أفلاطون ، فأقبلت عليها أستمتع بما فيها من سحر البيان ، وما أكثر ما قرأتها ، وما أكثر ما سأقرؤها ! إنى لا أخاف الموت ولا أكره حديثه ، كما تخافه أنت وتكره حديثه .

قال أندروكليس : فقد أرضيتني ، ورددت إلى نفسي طمأنينتها ،
أنبأني بأنك لن تتعجل الموت ، لأن لك في الحياة أرباً . وخطبُ
قيصر ، وخطب الناس جميعاً ، وخطب الآلهة أيضاً ، أيسر وأهون من
أن تتعجل في سبيله الموت وما يزال لنا أرب في الحياة . ولكن المشكلة
ما زالت قائمة ! فإن قيصر يأمر عماله ، ومنهم صديقنا ، أن يشتدوا
في حمل الناس على دين المسيح ، وأخذهم بالجدّة في ذلك أخذاً حازماً
عنيفاً ، إن احتاجوا إلى الحزم والعنف .

فإذا ترى لنفسك ؟ وماذا ترى لصديقنا ؟ وماذا ترى لي ؟
قال كلكراتيس : وما أرى لصديقنا ولا لك إلا ما رأيته أنت
وقبّله صديقنا . فإني لا أريد ولا أستطيع أن أحملكما على ما أريد ،
وأستطيع أن أحمل عليه نفسي .

قال أندروكليس : وعلامَ تريد أن تحمل نفسك ؟

قال كلكراتيس : على معصية قيصر .

قال أندروكليس : أوَ تفعل ؟

قال كلكراتيس : نعم .

قال أندروكليس : فإن عاقبة هذا العصيان لن تمسك وحدك ،
ولكنها ستمسنا جميعاً . ولست أخفي عليك أني لا أريد أن أتعرض
للأذى ، لأن لي في الحياة ولذتها أرباً . فإذا تحدثت إليك الآن
ناصحاً بالتزود والأناة ، فإني مخلص في النصيحة غير مهم ، لأنني
سأخالفك وآمن كيد قيصر وأذاه . إنما أنصح لك بالأناة إشفافاً عليك
أنت . وأنا أعلم أني لن أستطيع إكراهك على الحياة إن آثرت الموت ،

ولا على الدعة إن آثرت العذاب ، وإن كان موتك يُشقيني ، وعذابك يؤذي . ولكنني أشفق على صديقنا ، وما أراك إلا مشفقاً عليه مثلي . فإن عصيانك لقيصر سيضطره إلى إحدى اثنتين . كلتاها شرّ : إما أن يجاريك فيشاركك في الشقاء ، وإما أن يجاري قيصر فيدفع إلى البطش بك ، وما أراه يفعل . أفكرت في هذا كله ؟ أقدرت هذا كله ؟ قال كلكراتيس : فإني ما زلت في التفكير والتقدير منذ اليوم .

قال أندروكليس : وإذا ؟

قال كلكراتيس : وإذا فلست أدرى . لقد دعاني الموت فأبيت أن أستجيب له ، وأنا حريص أشد الحرص على ألا أؤذيكما . وما أرى إلا أن الأرض واسعة ، والفضاء عريض ، وأن في الهجرة عنكما والزوال عن هذا الإقليم ما يرضيني وإن شقّ عليّ ، وما يؤمنكما وإن كان فراقك عليكما عسيراً .

قال أندروكليس : تريد أن تقول عن هذا الإقليم ، وتهاجر من هذه الأرض ولكنك تعلم أن أمر قيصر ليس مقصوداً على هذا الإقليم ، ولا موقوفاً على هذه الأرض . فأنت إذا تريد أن تتعرض للأذى أو للموت على ألا يأتيك الأذى والموت من يد صديقك .

قال كلكراتيس : فإني لا أريد الموت ، ولا أرغب في الأذى ، ولا أهاجر من أرض قيصر إلى أرض قيصر ، إنما أزول عن ملك قيصر كله .

قال أندروكليس ، وقد أخذه الدهش والحزن : تقول عن ملك قيصر ، وتلجأ إلى أرض البرابرة ، وتدع حضارتنا وعاداتنا وتراثنا وما في حياتنا من نعم وخص ، إلى حياة مجهولة ، وقوم مجهولين ، وغربة

ماندرى ماذا تُضمر لك من الأخطار ! فأنت تريد إذاً أن تسلك سبيل أولئك الفلاسفة من اليونان الذين لجئوا إلى عدوتنا من الفرس ، وأتاحوا لكسرى ما كنا نحسبه من العلم والفلسفة والمعرفة ، وأتاحوا له قوة لم يكن يملكها ، وقدرة على حربنا والكيده لنا والظهور علينا لم يكن له منها حظ .

قال كلكراتيس : ما ألوام أولئك الفلاسفة الذين فرّوا بعقولهم إلى أرض عدوتنا من الفرس ، فربما كان العقل آثر من الوطن ، وآثر من الصديق ، وآثر من الناس والأشياء جميعاً .

ولكن هوّن عليك ! فلن أسلك طريق أولئك الفلاسفة إلى بلاد الفرس ؛ لأنى لا أريد أن أخرج من رقّ قيصر لأدخل فى رقّ كسرى ، وما أريد أن أفرّ من دين المسيح لأكره على دين المجوس ! إنما أريد أن أهاجر إلى أرض لا سلطان فيها ، وليس لأحد عليها ملك . إلى أرض لا يُكرهُ الناس فيها على ما لا يحبون . إلى أرض لا أكون فيها رعية ولا سوقة ، وإنما أكون فيها ملكاً .

ثم رفع إلى صديقه نظرة حزينة وقال : لا يُعجلك الدهش عن الاستماع لى والفهم عنى ! فإنى لا أهرب من ملك قيصر لأفرض ملكى على الناس . ومن لى بالملك وأسبابه ! إنما أريد أن أكون ملكاً لنفسى ، لا أملك أحداً ، ولا يملكنى أحد .

قال أندروكليس وقد رُدّ إلى هدوئه فأغرق فى الضحك : فأنت تريد أن تهاجر إلى الصحراء ، وأن تكون راهباً فيها من رهبان دينوزوس ! وأىّ طريق لا أرى به بأساً . إن للنصرانية رهبانها الذين يقيمون فى

الأديار والصوامع ، في المدن وفي أطراف الصحراء . فأنت تريد أن تجعل الوثنية رهبانها وأديارها وصوامعها .

رأى طريف لا أرى به بأساً . لقد أخذ النصارى عن الوثنية علمها وفلسفتها . فما للوثنية لا تأخذ عن النصرانية نُسكها ورهبانيتها ! ما أرى إلا أننا سنلهو بهذا الرأي لهواً متصلاً ، حين نخلو إلى صديقنا وإلى دينوزوس إذا جنّ الليل .

قال كلكراتيس : لا تسخر ولا تمزح ! فما فكرت في رهبانية ولا نُسك . وقد قلت لك إن لي في الحياة أرباً ، وما أريد أن أتخذ لي في طرف من أطراف الصحراء صومعة ولا ديراً . وماذا أصنع في الصومعة والدير ، وأنا لم أرض حاجتي بعد من لذات الحياة ونعيمها ! لا أريد أن أعتزل الناس ، وإنما أريد أن أعتزل السلطان .

لن نلهو الليلة بهذا الرأي كما تظن ، ولكننا سنتدبره ونطيل الحديث فيه . فما زلت أعتمد عليكما ، وعلى ما تضمران لي من مودة ، وما تُخلصان لي من حب . وما زلت أعنقد أنكما ستموان عليّ من هذا الأمر ما أراه عسيراً .

قال أندروكليس : لقد كان مُخيل إلىّ أني فهمت عنك ، ولكنك تردّتي إلى الغموض والحيرة . فلعلّي أفهم عنك حين نخلو إلى صديقنا . وما أظن إلا أنه قد آن لنا أن نسعى إليه .

٤

وأقبل الصديقان من ليلتهما على قصر الحاكم ، فحادا بهما الحُجاب عن طريق الحجرات الخاصة التي كانت تشهد ما يأخذان فيه مع صديقيهما من سمر وهو ومجون ، وسلكوا بهما طريق بهو من أبهاء الاستقبال . فلما سألَا عن ذلك قال الحُجاب : إن سيدهم لم يفرغ للسمر بعدُ ، وما يظنون أنه سيفرغ له الليلة .
قال أندروكليس : فإننا ننتظره كما تعودنا أن نفعل حتى يفرغ لنا .

قال أحد الحُجاب : بل هو ينتظركما . وقد تقدم إلينا في إدخالكما عليه إذ أقبلنا ، وفي تعجلكما إن تأخر قدمكما على القصر .
قال كلكراتيس : وما ذاك ؟

قال الحُجاب : ما ندرى ! ولكن مولانا قد خلا منذ ساعة غير قصيرة إلى راهب شيخ من الرهبان ما أرى إلا أنكما تعرفانه ! فقد رأيت مولانا يلتقاه مكبراً له ، حفيماً به في كل شيء من التبسط والإسماح ، كأن له به عهداً قديماً .

قال أندروكليس : راهب شيخ يلقاه الحاكم حفيماً به ، مكبراً له ، متبسطاً معه . من عسى أن يكون ؟ !

قال كلكراتيس : وهو يريد أن نلقاه ، ويتعجل مقدمنا إن أبطأنا ! أفتراه قد دعا هذا الراهب ليعظنا ويفقهنا في الدين ؟ إنه

ليحرق السفن من ورائه ، ولا يكفيه أن يسمع لمشورتك ، بل يسرع إلى العمل بها إسراعاً . ما أشد حرصه على رضا

ولم يمكنه أندروكليس من إتمام مقالته ، وإنما غمزه مسرعاً وقال للحاجب : أفلا تريد أن تستأذن لنا ؟

قال الحاجب : نحن لسنا في حاجة إلى ذلك ! فقد أمرنا أن نُدخلكما عليه فوراً .

ثم مضى أمامهما وتبعاه ، ثم انفرجت لها الأستار واجتمعت من دونهما . ولم يكادا ينظران إلى هذا الراهب الشيخ الذى كان يتحدث إلى صديقهما فى أناة وهدوء ، حتى أخذهما الدهش ، ودفعا إلى الشيخ دفعاً وهما يصيحان بصوت واحد : كلينيكوس !

ونَهَضَ الشيخ لهما فى رزاة ووقار ، فضمهما إليه ، وقبلهما تقبيل الواصل المشوق ، وبارك عليهما فى غير تكلف ولا تصنع ، وهو يقول : فقد أذن الله لى أن أراكم جميعاً قبل أن أترك هذه الأرض .

قال كلكراتيس : فإنك قد تركت هذه الأرض عن رضا وتعمد . وما أدرى ماذا أزعجك عنها ! وما علمت قط ماذا صرفك عما كنت فيه من حياة ناعمة وعيش لين . وما كنت أحسب أن فراق الأصدقاء يهون عليك إلى هذا الحد ، وأن نفوس الناس تتجافى عن أوطانها على هذا النحو .

وهمَّ الشيخ أن يجيب ، ولكن أندروكليس قال متعجلاً : عجبا للذين ينكرون على الناس ، ولا ينكرون على أنفسهم . فإنى أشاركك فيما تقول لكلينيكوس ، ولكنى أحب أن تقوله لنفسك . ثم التفت إلى

حاكم المدينة قائلا : ولكنك تجهل من أمره كل شيء . فاعلم أنه قد أزعج الحجرة عن هذه الأرض ، وهو الآن يفكر في مهاجره الذى يقصد إليه ويستقرّ فيه .

وأظهر الحاكم دهشه وإنكاره . ولكن الراهب الشيخ نظر إلى كلكراتيس نظرة حب وحنان ، وقال : فقد مسك إذن جتناح من رحمة الله وأنت تريد الفراغ له ، والخروج لطاعته عن حياتك الناعمة ، وعيشك اللين ، وأيامك المقبلة التى قد تكون حافلة ، إن انتظرتها ، بالسلطان والجاه . فلا تلتمس مهاجراً ولا تفكر فيه ، ولكن ارتحل معى من الغد ، أو ارتحل فى أثرى إن احتجت إلى أيام تُصلح فيها أمر من تترك وراءك من الأهل والصدىق : فما أراك تجد ديراً أرفق بك من دبرنا ، وما أراى أهدى إلى دبرنا خيراً منك .

قال أندروكليس : فإنك لم تأت للقائنا إذأ ، وإنما أتيت للضرب بيننا . وما كفاك أن انتزعت نفسك من وطنك وصدىقك انتزاعاً حتى تريد أن تنتزع كلكراتيس !

قال الراهب مبتسماً : لو استطعت أن أنتزعتكم جميعاً ، وأخرجكم عما أنتم فيه ، وأهديكم إلى هذا الدير ، أو أهدى إليكم الحياة فى هذا الدير ، لكنت أسعد الناس وأخلقهم بالغبطة والابتهاج . فإن الله لم يُبتح لأحد منا نعمة تعدل القدرة على استنقاذ الناس من أنفسهم ، واستخلاصهم له من آثام الحياة وسيئاتها . وأى شيء آثر عند الرجل الكريم من أن يستنقذ صديقه من الشر ، ويهديه سبيل الخير ! وإنى ما أقبلت عليكم لأنترع منكم أحداً ، ولا لأنترعكم من أنفسكم وأوطانكم ،

ولإنما دُعيتُ فأجبت ، ثم سنحت الفرصة فأنا أنتهزها .
قال كلكراتيس ضاحكاً : فإن نفسى لم تنضج بعد لحياة الدير ،
وما أرى أنها قريبة النضج .

قال حاكم المدينة باسمًا وهو يلتفت إلى الراهب : فإنى قد
دعوتك لأيسر من هذا. وإنى أستطيع الآن ، وقد حضر هذان الصديقان ،
أن أظهرك وأظهرهما على جليلة الأمر ؛ فإنك لا تعلم منها شيئاً ، وهما
لا يعلمان منها إلا قليلاً .

قال الراهب : وما ذلك ؟

قال حاكم المدينة : فإن مكانك منا بحيث تعلم ، وقد كنت
لآبائنا صديقاً ، وكنت بنا رقيقاً . وكثيراً ما عقدت بنا الآمال ،
وُنظت بنا الأمانى . وكثيراً ما تحدثت إلينا وإلى آبائنا بأنك تدخرنا
لتجارتك الواسعة ، فى أقطار الأرض العريضة . ثم كانت رحلتك
تلك إلى بلاد العرب ، ثم كانت عودتك منها ، ثم كان اعتزالك
للحياة والأحياء ، وانقطاعك لله فى ذلك الدير البعيد القائم فى طرف
من أطراف الصحراء .

أعرضت عنا ولم تفكر فينا ، ولم تخفل بما ألمَّ أو ما كان يمكن
أن يُلمَّ بنا من الأحداث والخطوب . وما ندرى ماذا صنعت بتجارتك
الضخمة ، وثروتك الواسعة . وما أتحدث إليك فى ذلك عاتباً ولا
لائماً ! فإنك لم تسيء إلينا ، ولم تقصر فى ذاتنا ، وإنما أهلك عنا
ما أهلك من أهلك ومالك ونفسك . وإنما أذكرك بهذا كله لتعلم أنك
إن نسيتنا فإننا لم ننسك ، وإن شغلت عنا فإننا لم نُشغل عنك .

ثم لتعلم أنى لم أذعك ولم ألقأ إليك ، إلا لأنا تعرّضنا لما نحتاج معه إلى رأيك ومشورتك ، وإلى سلطانك العظيم على نفوسنا ، وتأثيرك العميق فى قلوبنا ، فاعلم الآن أن قد ارتفعت الأنباء إلى قسطنطينية بأن هذين الصديقين يرتابان فى دينهما ، ولا يتحرّجان من الإعراض عنه ، وقد يستبيحان فى بعض خلوتهما العبث به والإلحاد فيه . وجاء إلى الأمر من قسطنطينية أن أمتحنهما وأكشف جلية أمرهما ، فإن ظهرت منهما على ريبة ، أخذتهما بالتوبة أخذاً شديداً ، فإما قبلأها ، وإما أخذتهما بالعذاب الشديد . وما أخفى عليك ، وما أظننى أستطيع أن أخفى عليك أن ما ارتفع من أمر الصديقين إلى قسطنطينية حقّ كله ، بل هو بعض الحق ؛ فإنهما لا يرتابان وحدهما فى الدين ولا يعبثان وحدهما بالدين ، وإنما يشاركهما فى الريبة والعبث ثالث لهما ، هو الذى يتقدم إليه قيصر فى تخييرهما بين التوبة والعذاب . وما أحسب إلا أن الأنباء ارتفعت إلى قيصر بأمرى ، كما ارتفعت إليه بأمرهما . وما أحسبه إلا يمتحنى بهذا الأمر الذى أصدره إلى . وقد أشرت ، بعد أن دعوتك ، إلى صديقى بهذا الخطب فى شيء من التلطف والتلميح . فأما أحدهما ، وهو أندروكليس ، فقد أظهر مرونة وليناً وحسن استعداد لاتقاء الفتنة . وأما الآخر فتستطيع أن تنظر إليه ، فإن ما يظهر على وجهه من العبوس والثورة خليق أن ينبئك ببعض أمره إن لم يُنبئك به كله .

وهم كلكراتيس أن يتكلم ، ولكن الراهب قال فى صوت رقيق رفيق : إنى لأرهمكم يا بنى وأرئى لكم ، لا من شكّ قيصر فيكم

وارتيابه بكم ، وتعريضه إياكم للفتنة والبلاء ! فذلکم أيسر الخطب وأهونه ، بل من شككم في الدين وارتيابكم به ، وإعراضكم عنه وإلحادكم فيه . ولكني على ذلكم لا ألومكم ولا أنكر عليكم ، وإنما أفهم موقفكم حق الفهم ؛ فإن هذه الحياة التي تحيوتها ، وهذه البيئة التي تضطربون فيها ، وما يختلف بين أيديكم كل يوم من الحوادث ، وما يعرض من الأمر ، وما ترون من سيرة القادة والسادة والوعاظ والهداة ، كل ذلك خليق أن يشككم فيما تشكون فيه ، ويُرِيكم بما ترتابون به ، ويدفعكم إلى ما تندفون إليه من هذه الحياة العابثة الماجنة التي لا ترجو لأحد ولا لشيء وقاراً .

وكيف ألومكم أو أنكر عليكم وقد أنفقت أكثر عمري فيما تنفقون فيه شبيبتكم ! وأولا هذه الرحلة وما رأيت وما سمعت وما بلوت فيها وما تبينت ، لما كنت إلا واحداً منكم ، يشارككم في العبث واللغو إن قدر على مشاركتكم فيهما ، أو ينعم باستمتاعكم بالعبث واللغو إن ردت السن عن أن يأخذ بحظه منهما .

ولو تعرفون يا بني هذه اللوعة التي تحرق قلبي تحريقاً ، وهذه الحسرة التي تفرق نفسي تفرقاً ، وهذا النلم اللاذع الذي لا يفارقي يقظان ولا نائماً ، لو تعرفون هذا أو بعض هذا ، لرحم أنفسكم مما أرحمكم منه ، ولعدلتم بأنفسكم عن هذه الطريق التي عدلت بنفسى عنها ، ولكني لا أدري كيف أنقل إلى قلوبكم ما أجد في قلبي ، وكيف أشيع في نفوسكم بعض ما يشيع في نفسي ، وكيف أبين لكم بعض ما تبين لي من أن هذه الحياة باطل كلها ، ومن أننا ننشأ

آثمين ، ولا نخطو في حياتنا خطوة ولا نتقدم في عمرنا لحظة ، إلا عَـلقت بنا أدران الإثم ، ولصقت بنا أضرار الخطيئة ، ومن أننا لو خلونا إلى أنفسنا ، وانقطعنا عن الناس جميعاً ، وعن الأشياء جميعاً ، وفرغنا للندم على ما قدمنا وقدم آباؤنا الآثمون الخاطئون ، والاستغفار مما جنينا وجنى آباؤنا المذنبون المسيئون ، لما أزلنا عن أنفسنا بعض ما علق بها من إثم ، ولا غسلنا عن قلوبنا بعض ما لصق بها من وضر . وما أعرف مع هذا كله أن إظهاركم على بعض ذلك يتأتى بالحوار والخطاب ، أو يتاح بالحجة والدليل ، وإنما هي رحمة من الله تمس العقول ، فتكشف لها عن الحق ، وتهديها سواء السبيل .

قال كلكراتيس : فإن هذه الرحمة لم تمس عقولنا بعد ، وما أدرى أتمس عقولنا في يوم من الأيام . وإذا كنا لم نرحل رحلتك إلى بلاد العرب ولم نر فيها ما رأيت ولم تبيل فيها ما بلوت ، فنحن معذورون إن لم نضق بحياتنا هذه ذرعاً ، ولم نخرج عنها ونسلك طريقك تلك التي سلكتها إلى الدير .

وصدقتني أتى لا أكره أن تمسني هذه الرحمة التي مستك ، بل لا أتمنى إلا أن تمسني فهديني إلى مثل ما اهتديت إليه ، أو إلى غير ما اهتديت إليه ، ولكنها تخرجني على كل حال من هذه الحياة التي أخذت أمقتها أشد المقت ، وأضيق بها أعظم الضيق .

قال أندروكليس : ولكني لا أمقت هذه الحياة ولا أضيق بها ، ولا أريد أن تمسني هذه الرحمة ، ولا أبتغي إلا أن أترك وما أنا فيه من خفض العيش وليته ، وأنا زعيم بإرضاء قيصر وإرضاء المسيح أيضاً .

قال الراهب : أما إرضاء قيصر فيسير ، والناس جميعاً أو أكثرهم يبلغون من رضا قيصر ما يريدون ، وإنما هي الطاعة والإذعان ، والاختلاف إلى الكنائس ، وشهود الصلوات ، وإظهار التكريم للقسيسين والرهبان . وأما إرضاء المسيح فشيء آخر بعيد كل البعد عن أن يكون من اليسر والسهولة بحيث تظن .

قال أندروكليس : فحسبى أن أرضى قيصر ! لأنى أعرفه وأومن به ، وأرجو نعمته وأخشى نقمته . فأما المسيح فما أرى أن له على حقاً قبل أن يظهر نفسه لى ويمسنى بهذه الرحمة التى مسك بها . وأنا أرجو ألا يفعل ؛ فإنه إن فعل كلفنى مثل ما كلفك من اطراح الحياة ولذاتها ، وما يملؤها من هذا النعيم ذى الألوان المختلفة الذى لم أقض منه حاجتى ، وما أحسب أنى سأقضيها فى يوم من الأيام .

قال الراهب ملتفتاً إلى الحاكم : وأنت ماذا تقول ؟
قال الحاكم مبتسماً مستخدياً : يشقّ علىّ أنى لا أستطيع أن أقول إلا ما قاله أندروكليس .

قال الراهب : فىنى لا أملك لكما من الله شيئاً ، وما أنا من الذين يحبون الحوار فى الدين ، وما هيات نفسى لذلك وما مرتتها عليه ، وما أقدر لكما إلا على الصلاة والدعاء . فأما أنت يا كلكراتيس ، فىنى أرى ، من اضطراب نفسك وثورة ضميرك وترددك بين ما ترى وما لا ترى ، أن لك شأنأ .

قال أندروكليس ملتفتاً إلى الراهب ضاحكاً له : أتعلم أى صورة يثيرها موقفك هنا الآن فى نفسى ؟

قال الراهب : نعم ! تتحدث إليك نفسك بأنى ذنب قد وقع في القطيع ، فهو يتخير بين شائه الشاة التى تلاثمه ويسهل عليه اختطافها ، وتخيّل إليك نفسك أن كلكراتيس هو هذه الشاة ، وأنى سأحاول انتزاعه من أهله وصديقه ووطنه . ثم تتحدّث إليك نفسك هازئة بي وساخرة منى بأن كلكراتيس بعيد كل البعد عن أن يكون شاة ، وبأنى سأرتدّ عنه خاسئاً حسيراً . ولكن نفسك تكذبك يا بُنى ، فما أنتم بالقطيع ، وما أنا بالذئب ، وإنكم لألسنُ منى ، وإنكم لأقدر منى على الحوار والانتصار على الخصم . وما أنا بطامع في كلكراتيس ، وما هو في حاجة إلى أن يقاومنى ويدفعنى عن نفسه ، وقد أنبأنى آنفأ بأن رحمة الله لم تمسه بعدُ ، وأنه لا يكره أن تمسه ، بل لا يتمنى إلا أن تمسه ، وأنا أعلم أن رحمة الله قريب من الذين يطعمون فيها ويطمحون إليها . فلست أرجو أن يرحل معى كلكراتيس ، ولعلى لا أرجو أن يلحق بي إلى الدير . ولكنى لست أياس أن يمسه الله بروح منه ، فيخرجه من تردده ، وينقذه من اضطرابه الذى يشقيه . قال كلكراتيس : فىنى لست متردداً ولا مضطرباً ، ولكنى مطمئن كل الاطمئنان إلى أن هذه الحياة التى يأخذ قيصر بها الناس ويريد أن يأخذنا بها . ويواطئه صديقاى على أن يأخذنا بها نفسيهما ، شرّاً كلهما لا تليق بالرجل الكريم ، ولا يستطيع ذو العقل أن يطمئن إليها . فأنا أريد عازماً أشدّ العزم أن أفرّ بعقلى منها إلى مكان بعيد لا تستطيع أن تبلغه ، ولا يستطيع سلطان قيصر أن يصل إليه . قال الراهب : إنى يا بُنى لم أختلف إلى مجالس الفلاسفة كما

اختلفت إليها ، ولم أقرأ من كتبهم مثل ما قرأت أو بعض ما قرأت ، وإنما أنفقت حياتي في التجارة ومعالجة المنافع العاجلة ، ومع ذلك فقد ينخيل إلى أنك تريد أن تحمل نفسك شططاً ! فإنما لم تُمنح العقل لغيره من الشرّ ، بل لنواجه به الشر ونقهره ونظهر عليه . وما أظن أنا مُنحنا العقل لتخذه وسيلة إلى الأثرة ، وطريقاً إلى الراحة والنعم . كذلك يفكر كثير من الناس ! ولكنهم ، فيما أعتقد ، ينجذعون أنفسهم ويضللون عقولهم ، ويخفون ما يملأ قلوبهم من الضعف وحب النفس والعجز عن احتمال تبعات العقل . إن العقل يا بُنيّ فيما أرى نور ؛ ومن طبيعة النور أن يهزم الظلمة لا أن يهزم لها . وإن العقل يا بُنيّ فيما أرى سلاح ماضٍ حديد ! ومن طبيعة السلاح أن يهزم العدو ويُظهر صاحبه عليه ، ويحمّله على المقاومة والجهاد في أقل تقدير ، لا على الهرب والفرار لأول بادرة تبلر أو شرّ يخاف .

قال كلكراتيس : فإن استيقنت أن هذه الظلمة التي تحيط بي أشدّ كثافة وصفافة ، وأكثر تراكماً وتلاحقاً من أن يبددها هذا النور الضئيل الذي يضطرب في رأسي ، وإن استيقنت بأن العدو الذي يهاجمني ويأخذني من كل وجه أضخم قوّة وأعظم بأساً وأكثر عدداً من أن أهزمه بهذا السلاح الذي في يدي . . .

قال الراهب : فإن الواجب عليك مع هذا أن تثبت لهذه الظلمات الكثيفة الصفيقة المترامية المتلاحقة ؛ فإنها مهما تبلغ من الكثافة والصفافة فلن تمحق هذا النور الضئيل الذي يضطرب في رأسك . وإن الواجب عليك أن تثبت لهذا العدو الذي يسعى إليك من كل وجه ،

ويريد أن يأخذك من كل نحو ، فإنه مهما تضحّم قوّته ويعظم بأسه ، فلن يستطيع أن يفيل سلاحك هذا الماضى الحديد ، ولا أن ينتزعه من يدك انتزاعاً .

وقد ضربت لك الأمثال من قبل : ضربها لك أبو الفلاسفة إن كنت فيلسوفاً ، وضربها لك صاحب الدين إن كنت دياناً . فإن سقراط لم يفترّ بقله من الأثينيين فيما أعلم ، ولكنه قبل منهم السجن ، وتلقى منهم الموت ، ثم لم يلبث أن ظهر عليهم آخر الأمر . وإن المسيح لم يفترّ بدينه من اليهود ولا من الرومان ، وإنما قبل منهم ما صبّوا عليه من عذاب ، وتلقى منهم ما أعدوا له من شر ، ثم انتصر عليهم آخر الأمر .

كلاً ! إنك لا تريد أن تفرّ بعقلك يا بُني ! فالعقل أشجع وأرفع وأمضى من أن ينهزم للسلطان أو يتقيه بالفرار ؛ وإنما تريد أن تفرّ براحتك ولذاتك وبما لك في الحياة من أرب . إنما تريد أن تفرّ لأنك تستشعر الضعف عن المقاومة ، وتحس العجز عن الثبات لهذه المحنة التي تدبر لك وتسلط عليك . إن العقل خير كله فيما أرى ، ولست أعتقد أنه يُغرى بالأثرة أو يحرص على الفرار . إن الدوافع التي تدفعنا إلى الشر لا تأتينا من عقولنا ، لأن عنصر العقل خير كله ، وإنما تأتينا من شهواتنا وغرائزنا . فانظر بأى شهوة أو بأى غريزة تريد أن تفرّ . ولكن إياك أن تظن أنك تؤثر عقلك بالعافية أو تحسن إليه بالهرب !

قال كلكراتيس : فأنت إذاً تُغري بانظار الموت ؟ !

قال الراهب : فإنك متظر للموت في كل لحظة ، وفي كل

مكان ، وفي كل طور من أطوار حياتك .
قال كلكراتيس : أرى أنك تريد لى أن أتعرض للفتنة وما يتبعها
من الشر والنكر وألوان المكروه .

قال الراهب : لا أريد شيئاً ، وإنما أستنبط النتائج من مقدماتها .
فإن كنت حريصاً على عقلك مؤثراً له مؤمناً به ، فإن العقل لا يعرف
الهزيمة ولا يجبها ، ولن تكون أول من تعرض للفتنة وألوان المكروه في
سبيل الرأى والعقل ، ولن تكون آخرهم . وإن كنت حريصاً على الراحة
والعافية مؤثراً لها فسواء علىّ وسواء على الرأى والعقل ، أسلكت إلى
هذه الراحة والعافية سبيل صديقك فخادعت الناس وناقمت معهم ، أم
سبيل الفرار والهجرة فخادعت نفسك وآثرت مخادعتها على مخادعة الناس ،
لأن ذلك أيسر لك وأهون عليك .

قال كلكراتيس : لم أكن متردداً ولا مضطرباً قبل لقائك ،
فأما الآن فإنك قد أفسدت على أمرى كله .

قال الراهب : لم أفسد عليك شيئاً يا بُنى ! لأن أمرك كان كله
فاسداً ، ولأنك كنت تخدع نفسك بالآمال والأمانى ، وتخيل إليها
أنها أكرم من نفس صديقك ومن نفوس الناس جميعاً . أليست تفرّ
برأيها وتهرب بحريتها؟! فأين هي من النفوس التي تقبل الضيم وتحتمل
الذل؟! وكانت هذه الكبرياء تُغريك وتطفئك ، وتحملك على أن
تؤله نفسك بالعبادة من دون الآلهة جميعاً . فأما الآن فقد أظن أن الأمر
تبين لك ، وأنتك ستطيل التفكير قبل أن تنحاز إلى دين قيصر مع
صديقك ، أو إلى دين نفسك في ذلك المهاجر البعيد . ولكن أحب

أن تعلم أن كلا الدينين باطل مهين عند العقل الذى يجيل إليك أنك
تُكبره كل الإكبار .

قال أندروكليس : كلا الدينين باطل مهين ! فأنت إذاً

تنكر دين قيصر والمسيح ؟ !

قال الراهب : أنكر دين قيصر ، ما فى ذلك شك ، ولكن دين

المسيح شىء ودين قيصر شىء آخر . وما لجأت إلى الدير إلا لأفرغ من

قيصر وأشباه قيصر للمسيح .

ثم سكت قليلاً ثم قال : بل للمسيح ولانتظار ما سينكشف عنه

الدهر بعد قليل .

قال حاكم المدينة : فسينكشف الدهر عن شىء بعد قليل إذاً ؟

قال الراهب : ما أشك فى ذلك يا بُنى ! فقد تحدثت به الكتب ،

وكان الناس يُضمرون انتظاره فيما بينهم وبين أنفسهم ، ثم أخذت

بواده الآن تبتلر ، وجعلت الآيات تتحدث إلى من يفهم عنها بأن

مقدمه قريب .

وارتفع الضحى من الغد ، فإذا الراهب الشيخ والفيلسوف الشاب ماضيان في حديثهما الذى كانا فيه من الليل ، فقد انتقلا به إلى بيت كلكراتيس حين همت أستار الليل أن تتجابه عن وجه النهار .
انتقلا بحديثهما دون أن يقطعاه أو ينصرفا عنه ، ودون أن يشغلها

عنه انهزام الليل المظلم وانتصار الصبح المشرق ، وهذا السهر المتصل الذى كان خليقاً أن يُعييها ويُضنيها . ولأمر ما شغلها هذا الحديث عن هذا كله ، وعن أكثر من هذا كله : فلم يشعرها بحاجة إلى الراحة ولا بنبو عن العادة ، ولا برغبة في طعام أو شراب ، وإنما مضيا أمامهما في الحديث نشيطين له ، مستمتعين به ، كما يمضى المسافر في طريق جميلة سهلة ، يملؤه النشاط وينأى به كل النأى عن الكلام والملال ، وعن التصير والقصور .

وكان الراهب الشيخ يقول لصديقه الشاب في هلهو ودعة ، وفي ابتسام يوشك أن يكون ساخراً لولا أن الشيخ كان أشد وقاراً وأعظم إيماناً من السخرية — كان الراهب الشيخ يقول لصديقه الشاب وادعاً باسمًا : إنك يا بُنى تسرف في أمر العقل ، وتحمله أكثر مما يطيق أن يحتمل ، وتدفعه حيث لا ينبغي أن يلفح ، فإنك لاتصلر عن العقل حين تحب وتُبغض ، ولا تصلر عن العقل حين تجوع وتظماً ، وإنما تصلر في ذلك كله عن غرائر قد ركبت في طبعك ،

وسيطرت على مزاجك . وقد يستطيع عقلك أن يفهم هذه الغرائز ، وقد يستطيع أن يحسبها ببعض التنظيم ، وقد يعجز في كثير من الأحيان عن فهمها وتنظيمها .

وما أدري يا بنىّ لم تؤمن بسلطان الغرائز على جسمك ، ولا تؤمن بسلطانها على نفسك ؟ بل ما أدري لم تؤمن بأن للغرائز على نفسك سلطاناً في بعض الأمر ، وتجحد أن يكون لها سلطان في بعضه الآخر ؟ قال كلكراتيس : فإنى لا أفهم عنك ما تقول منذ اليوم . قال الراهب الشيخ : فقد فهمت عنى كل ما قلته منذ التقينا ، أفترآك قد نال منك الجهد وأدركك التعب ؟

قال كلكراتيس : كلا ! ما رأيتنى قط كما أراى الآن نشيطاً إلى الحديث راغباً فيه ، مستريداً منه ، مشغولاً به . ولكن أوضح مقالتك فإن فيها بعض الغموض .

قال الراهب : فإن جسمك يا بنىّ يألم إذا مسه الجوع أو الظماً دون أن يكون لعقلك في ذلك تأثير قليل أو كثير ، وإن جسمك يا بنىّ يبرأ من الألم حين تردّ عنه الجوع بالطعام ، وحين تردّ عنه الظماً بالشراب . ولو أوتيت عقل الناس جميعاً لما استطعت أن ترد عن جسمك ألم الجوع والظماً حين يحتاج إلى الطعام والشراب ، ولما استطعت أن تردّ على جسمك ألم الجوع والظماً حين يدركه الشبع والرئى . فإنى أرى يا بنىّ أن لنفسك غرائزها كما أن لجسمك غرائزه ، وأن غرائز النفس كغرائز الجسم لا تصدر عن العقل ولا تنشأ عنه ، وإنما تصدر عن الطبع وتنشأ عن المزاج ، وحاجة النفس يا بنىّ إلى

الإيمان كحاجة الجسم إلى الطعام والشراب ، تألم إن فقدت الإيمان ،
وتستريح إن ظفرت به ، ليس للعقل في ذلك أثر . فكن أعقل الناس ،
وكن أحمزهم وأصرهم وأمضاهم عزمًا ، فلن يغير ذلك من نفسك
شيئاً إن كانت طبيعتها طبيعة النفس الإنسانية التي فطرت كما فطرت
نفوس الناس على الإيمان .

قال كلكراتيس : فلإني لا أنكر من ذلك شيئاً ، وما أنكر حاجة
نفسى إلى أن تؤمن ، وعجزها عن حياة الكفر والجحود ، وإنما أحاورك
في موضوع هذا الإيمان ، وفي السبيل التي تؤدى إليه .

قال الراهب : الشيخ : فلإني يا بنى أرى أن في العقل تمرداً
وغروراً . قد خضعت له طائفة من الأشياء ، وذلت له بعض صور
الطبيعة ، فظن أن كل شيء يجب أن يخضع له ، وأن كل صورة
من صور الطبيعة يجب أن تُذعن لسلطانه . والحوادث مع ذلك
ثبتت له من يوم إلى يوم ، بل من لحظة إلى لحظة ، أنه لم يعلم من
الأمر إلا أقله ، ولم يستدل من صور الطبيعة إلا أيسرها وأهونها شأنًا .
وإن غرور العقل يا بنى قد زين له أن يجعل للطبيعة قوانين ، ويفرض
عليها قيوداً وأغلالاً ، وألا يؤمن بها ولا يرضى عنها إلا إن خضعت
لقوانينه ، ورسفت في قيوده وأغلاله . ولكن قوانينه لم تُحطُ بكل شيء ،
ولكن قيوده وأغلاله لم تبلغ كل شيء . وما زالت الطبيعة حرة طليقة ،
وما زالت أكبر من العقل وأوسع من سلطانه وأبعد من مرماه .
وما زالت أحداث تحدث لا يستطيع العقل إنكارها ، ولا يستطيع تفسيرها ،
ولا يستطيع إخضاعها لقوانينه ولا لقيوده وأغلاله .

هي متمردة على العقل لأنها أقوى منه . وهو متمرد عليها لأن الغرور قد أفسد عليه أمره ، وأنساه أنه حديث السن ، قليل الحول والطول ، وأن الطبيعة أقدم منه عهداً ، وأبعد منه مدى . ما أجبر العقل يا بُنيّ أن يُصلح نفسه ، وأن يُصلح ما حوله ، لو أنه عرف قدر نفسه ، فلم يخرج عن طوره ولم يُسرف في التمرد والغرور .

إنك يا بُنيّ لا تستطيع أن تفسر بعقلك كيف يحيا الميت بعد أن مات وشبع موتاً : ومع ذلك فقد نهض الميت من قبره ، وقد قرأت عليك ذلك في الإنجيل ، وما أنكرت منه شيئاً ! لأن الناس جميعاً قد عرفوه واطمأنوا إليه . وإنك يا بُنيّ لا تستطيع أن تفسر بعقلك كيف يبرأ الأكمه والأبرص ، لأن قائلاً يقول له ابرأ ! ومع ذلك فقد برى الأكمه والأبرص حين أمر أن يبرأ ، وقد قرأت عليك ذلك في الإنجيل فلم تنكره ؛ لأن الناس جميعاً قد عرفوه . وإنك يا بُنيّ لا تستطيع أن تفسر بعقلك كيف يمشي الرجل على الماء ، ولا كيف تشبع الجماعة الضخمة مما يقوم بأود الرجل الفذ ! ومع ذلك فقد كان هذا كله ، قرأته عليك في الإنجيل فلم تنكر منه شيئاً ! لأن الناس جميعاً قد عرفوه . فكن في إحدى هاتين المترلتين ، ولا تتذبذب بينهما : فإما أن تعرف ما عرف الناس ، وإذا فلتؤمن بما آمن به الناس ! وإما أن تنكر ما عرف الناس ، وإذا فما أدري لم تطمئن إلى آهتك القدماء ، وإن أمرهم لأدنى إلى المحال وأشدّ إغراقاً في السخف ، وأبعد مما يستطيع عقلك أن يُسبغ !

قال كلكراتيس : فإني أستطيع أن أنكر ما عرف الناس إلا أن

يعرفه عقلى . وإنى لأرى على نفسى بأساً من أن أنكر الآلهة القدماء كما أنكر الإله الحديد الذى يحدثنى عنه الإنجيل ما دام عقلى لا يستطيع أن يُسبغ من أمره ولا من أمرهم شيئاً .

قال الراهب : بل أنت لا تستطيع هذا يا بنى ! لأن نفسك عاجزة عن أن تحيا بغير إيمان ، كما أن جسمك عاجز عن أن يحيا بغير الطعام والشراب .

إن جسمك لا يستطيع أن يقيم على الجوع ، وإن نفسك لا تستطيع أن تقيم على الجحود ، وإنك مضطر إلى أن تؤمن بأهنتك القدماء ، أو بلهنا هذا الحديد القديم الأبدى الخالد . فاختر لنفسك بينه وبينهم ، وانظر أى الدينين أقرب إلى ما تحتاج إليه نفسك من الحب والرحمة ، ومن العطف والحنان ، ومن البر والتقوى . وأى الدينين أولى إلى ما يحتاج إليه عقلك من الارتفاع عن الصغائر ، والتتره عن الآثام ، والتطهر من الرجس .

قال كلكراتيس : ما أشد ما أفسدت على أمرى ! وما أشد ما سلطت على من الاضطراب .

قال الراهب الشيخ : قلت لك يا بنى إنى لم أفسد عليك شيئاً ؛ لأن أمرك كان كله فاسداً ؛ وإنما رأيت الأمور قد اختلطت عليك ، فاجتهدت فى أن أهون عليك التمييز بين المختلط منها . وما أظن أن ذلك يستقيم لك فى هذه اللحظة التى أنت فيها ! ولكنك فى حاجة إلى الأناة والروية ، وإلى التلبث وطول التفكير . فأمهل نفسك ورُضها على عبادة دينوزوس وأصحابه ، فما أراها تستجيب لك . ثم

رضها على الكفر المطلق والجمود الخالص ، فما أراها تقيم على ذلك أو تطمئن إليه . ثم رضها على حبّ هذا الإله الحديد الذي يبشر به الإنجيل ، وانظر فلعل رحمة الله أن تمسها ، ولعل قلبك أن يذوق حلوة هذا الإيمان الذي أنعمُ به منذ انتهيتُ إلى ذلك الدبر .

وإني ، يا بنيّ ، راحلٌ عنك وعن صديقيك منذ اليوم ، وكاره أن يظن بي صاحبك ما ظنه حين كان يزعم أنني قد آتيت أخطفك من بينهما . فاستقبل أمرك هادئاً مطمئناً ، وانظر إلى أي شيء ينهى بك النظر والتفكير .

قال كلكراتيس : فما أرى أنني سأدعك ترتحل عني ، وما أرى أنني أستطيع في هذه الأرض مقاما .

قال الراهب : فما أستطيع يا بنيّ أن أقيم .

قال كلكراتيس : لن ترتحل وحدك .

قال الراهب مشرق الوجه : فأنت إذا تريد أن تتبعني ؟

قال كلكراتيس : نعم ! لا لأنني آمنت بما تؤمن به ، واطمأنت إلى ماتطمئن إليه ، ولكن لأنني أجد في حديثك أنساً لم أجد في حديث إنسان قط ، وأرى في قربك رحمة وحناناً لم أجدهما في قرب إنسان قط ، وأرى أن هذه الدار تنبو بي ، وأن الناس من حولي عدو لي ، وأنت وحدك الصديق ، وأن دارك وحدها هي دار الخفض والذعة والمهلوء . ثم صمت الفتى صمتاً طويلاً ، ولكن دمعه الغزيرة المنحدرة

تحدثت عن نفسه الحائرة المضطربة أصدق الحديث .

هنالك نهض الراهب الشيخ فضمه وقبله وبارك عليه .

وبلغ الراهب الشيخ ديره بعد أيام ، فإذا الفيلسوف الفتي يستقبله مع المستقبلين حفيماً به مشوقاً إليه ، يسأله في لفة وحنان ، وفي محبة وبرّ عما احتمل من مشقة ، وما صادف من عقبة ، وما لقي من عناء في سفره البعيد . والراهب يجيبه هادئاً مطمئناً وادع النفس مستريح القلب ، لا يظهر دهشاً لمكانه في الدير ، كأنه كان مستيقناً أنه سيلقاه حيث يلقيه الآن . حتى إذا استقرّ به مكانه ، وخفّ إلحاح أصحابه عليه بالتحية والسؤال ، وفرغ لصديقه الفتي شيئاً ، سأله : كيف انتهيت إلى هذا الدير ؟ وكيف نجدك فيه ؟

قال الفتي : لقد أحسست منك يا أبت ترددًا في اصطحابي ، وإحجاماً عن مرافقتي ، وإشفاقاً من أن يظن بك صاحباي أنك قد خطفتني من بينهما خطفًا ، كما كنت تقول ، فلم ألح عليك ، بل لم أعد عليك طلب الإذن في صحبتك . وإنما تلقيت ضمك لي وتقبيلك إياي ، وهذه البركة التي مسنتني بها ، تلقيت هذا كله منك على أنه قبول لما طلبت إليك ، قبولٌ صدر من قلبك إلى قلبي ، وانتقل من نفسك إلى نفسي ، وإن لم يبلغه لسانك إلى أذني . ومن هنا أظهرت الماضي فيما كنت ماضياً فيه من سخط على قيصر ، ورغبة في الهجرة ، وبحث عن الأرض التي أهاجر إليها . وذهبت من مساء ذلك اليوم إلى قصر الحاكم ، فلقيته ولقيت أندروكليس ولقيتك معهما

وسمرنا فيما سمرنا فيه ، وافترقنا حين تقدم الليل ، لم يحس صاحباى
أنى تقدمت خطوة فيما كنت أفكر ، أو تأخرت خطوة عن الموقف
الذى كنت قد انتهيت إليه . ولكن أمرى كله كان قد دبر بين أول
النهار وآخره . ولما فارقتكم لم أعد إلى بيتى إلا لألم به إلامة قصيرة .
ولما تلقيت الصبح من غد تلك الليلة كنت قد فصلت عن المدينة
منذ ساعات . ثم لم يرتفع الضحى ، ولم تزُل الشمس ، حتى كنت
بعيداً عن إقليم صاحبي . وما أدري بعدُ ماذا كان من أمره وأمر
أندروكليس ، حيث علما أنى قد فارقت المدينة فراق من لا يريد
أن يعود إليها . وما أدري إلا أنهما قد ضاقتا بهجرتى هذه ضيقاً شديداً ،
فإنهما يجانبني ويأتسان إلى ، ويحرصان الحرص كله على صحبتي .

وقد كنت أريد أن أجزيهما برّاً ببر وإحساناً بإحسان ، ولكن
ماذا أصنع وقد فرقت بيننا طبائعتنا وأمزجتنا على هذا النحو الذى
رأيت ! على أنى قد تركت ورأى من الأمر ما ينبئهما بأنى كنت لهما
صديقاً ، وعلى مودتهما حريصاً فقد جعلت إلى حاكم المدينة تدبير
ثرزنى وإنها لعريضة ، والإشراف على أموالى وإنها لضخمة ، وتقدمت
إليه فى أن يقوم فى ذلك مقامى ثلاثة أعوام ! فإنى رجعت إلى المدينة
فذاك ، وأنا زعيم أن أعرف له حسن خلافته لى فيما تركت ورأى ،
وإن لم أرجع ، وما أرانى راجعاً ، فإن مالى يقسمُ أثلاثاً : له الثلث ،
ولأندروكليس الثلث ، والثلث الأخير لهذا الدير .

وقد حملت معى ما استطعت حملة من مال وجوهر ، ومن عرض

ورقيق ، فقدّمته إلى رئيس الدير ليرّ به من تعود أن يبرّهم من الضعفاء
والبائسين والمحتاجين إلى المواساة والعون .

وأقمت في هذا الدير أنتظر عودتك لأستشيرك وأستخبرك ، وأسألك
عما أصنع وعما أريد ؛ فإنّي لأأدرى ماذا أصنع ، ولا أعرف ماذا
أريد .

قال الراهب الشيخ في صوت يملؤه الحنان والحب : لقد تعجلت
نفسك يا بنى ، وكنت خليفاً أن تستأنى وتصطنع الريث ! فإنك صائر
آخر الأمر إلى قرار ترصاه وتطمئن إليه . ولو قد أقمت بين أهلِكَ ومالك
وصديقك لما أخرج ذلك ما قدر لك من الانتهاء إلى ما يطمئن إليه قلبك
الذى لا بد له من أن يطمئن ، وإلى ما تستريح إليه نفسك الخائرة ،
ويخرج به عقلك من الشك إلى اليقين .

إنك يا بنى لست من هؤلاء الناس الذين تُفرض عليهم الحيرة
ضربةً لازب ، وينفقون أعمارهم في الشك الذى يُهلك النفوس ، أو
الذى يقلقها ويُعسِنّها ، أو الذى يضطرها إلى التهاون والاستمتاع باللذات .
لست من هؤلاء فى شيء ؛ ولكنك من الذين فطروا على الحزم والعزم ،
الذين لا يشكون إلا ليستيقنوا ، ولا يقلقون إلا ليطمئنوا . فأقل عليك
للوم ، واطمئن إلى الراحة فى هذا المكان الهادى البعيد ، وأرسل نفسك
على سبيلها ، ودعها تفكر ما وسعها التفكير ، ودعها تشك ما امتدت
لها أسباب الشك ؛ فلست أخشى عليها من هذا كله شيئاً .

قال الفتى : ما سمعت كاليوم كلاماً أحسن موقعاً فى النفس ،
ولا أيسر مسلماً إلى القلب ، ولا أقدر على تهديئة الضمير . لقد كنت

أريد أن أفرّ بعقلي من قيصر وطغيانه ، فإني الآن قد فررت إليك من عقلي وجوجه . فأشعرُ نفسي هذا الهدوء الذي تعرف كيف تذيعه في النفوس ، وأزلّ عنى هذا الاضطراب الذي لا أستطيع عليه صبراً ، ولا أملك له احتمالاً . أرحني من عقلي فقد سئمته وبرمت به ، وأصبحت له مبغضاً ، وعليه مضغناً .

قال الراهب الشيخ : رفقاً بنفسك يا بُني ، وإنصافاً لعقلك هذا المسكين الذي تعبت به كما يعبت الطفل بلعبته . لقد كنت منذ أيام تحكّمه في أمرك كله ، وتسلمته على نفسك وعلى كل شيء ، وتراه وحده الحكم الذي ترضى حكومته ، والقاضي الذي لا يردّ قضاؤه . فهأنت ذا قد أصبحت ترفض عقلك رفضاً ، وتنبذه نبذاً ، وتأني صحبته . لقد كان عقلك يتمرد عليك ، فأصبحت أنت تتمرد على عقلك . أليس من الممكن أن تجد لنفسك طريقاً وسطاً ، وأن تصاحب عقلك مصاحبة الصديق للصديق لا مصاحبة العبد للسيد ؟

قال الفتى : وهل إلى ذلك من سبيل ؟ لقد كلفني عقلي ما لا أطيق . ما عرضت عليه شيئاً إلا شك فيه ، ولا دعوته إلى شيء إلا ارتاب به ، ولا رغبته في شيء إلا رغب عنه ، حتى بغض إلى كل شيء وزين في قلبي حب الموت . ولقد رأيتني يوم أقبلت أنت إلى المدينة أقرأ « فيدون » تهيؤاً للموت . ولولا أن بيان أفلاطون شغلني عن نفسي وعن الموت ، لما حمدت عاقبة ذلك الشك الذي كنت فيه . قال الراهب وهو يضحك : فإن أمرك يا بُني لا يخلو من فُكاهة . ما أسرع ما فرقت بين نفسك وعقلك ! وما أسرع ما أنشأت بينهما هذه

الخصومة ، كأنهما شخصان مختلفان قد أصبح كل منهما لصاحبه عدواً ! ومع ذلك فأين الحدود التي تفرق بين هذين الشخصين ؟ إن عقلك يابني هو الذي يتحدث الآن ، وهو الذي كان يتحدث أمس . قد كان عقلك مسرفاً في الإيمان بنفسه فكان طاغية متمرداً ، ثم هو الآن مسرف في الارتباب بنفسه فهو ذليل مستكين . وكلتا الحالتين مرض يجب أن تبرأ منه لتنتهي إلى هذه المتزلة الوسطى ، فذوئمن بعقلك إلى حدّ ، وتجدد سلطانه إلى حدّ ، وتأخذه بما ينبغي من التواضع الذي يتيح له الفهم والتفكير وإصلاح أمرك في الحياة ، ويتيح لنفسك الإيمان واليقين وهذا النحو من الغذاء الروحي الذي لا تستطيع أن تحيا بدونه .

والأمر بينك وبين عقلك ، يابني ، أيسر جداً مما تظن . لم تفكر قط في المعجزات ولم تقف عندها . فلما أظهرتك على أطراف منها اطمأن إليها ضميرك ، ولم يسترح لها عقلك ، فهذا مصدر ما أنت فيه من الاضطراب . ولو قد استطعت أن تلتقي في رُوعك أن هذه المعجزات التي تخرق العادة وتخالف مألوف العقل من قوانين الطبيعة ليست في نفسها إلا مظاهر طبيعية كغيرها من المظاهر ، إلا أن سلطان العقل لم ينبسط عليها ، لعرفت أن سلطان العقل لم ينبسط ولا يمكن أن ينبسط على كل شيء . والله يجرى هذه المعجزات على أيدي رسله وأنبياؤه ليظهر العقل على أنه ما زال ضعيفاً قاصراً ، وعلى أن علمه ما زال بعيداً ، وسيظل بعيداً عن أن يحيط بكل شيء . فخليق أن يذكر هذا ولا ينساه ، وأن يسلك طريقاً مستقيمة متواضعة

إلى ما يريد من الحق ، فإنه هالك إن لم يسلك هذه الطريق . وما أرى يا بنى أن أمر هذا العقل سيصلح إلا حين يجرى الله المعجزة الكبرى .

قال الفتى : المعجزة الكبرى ! وما عسى أن تكون ؟

قال الراهب الشيخ : هي هذه التي يفهمها العقل حق الفهم ، ويكبرها كل الإكبار . يفهمها فلا يستطيع لها إنكاراً ، ويكبرها فلا يستطيع عليها تمرداً ولا طغياناً .

قال الفتى : وتظن أن هذه المعجزة واقعة يوماً ما ؟

قال الشيخ : بل هي واقعة ، وما أرى إلا أن وقتها قد أظلمنا ! فإن الله أحب لعباده وأرأف بهم وأعطف عليهم ، من أن يخلى بينهم وبين هذا الطغيان العقلي الذي هم فيه .

ولقد تعهد الله عقل الإنسان ، ينشئه وينميه ، ويمدّه بالقوة شيئاً فشيئاً ، ويُظهر له المعجزات بين حين وحين ، يعصمه بذلك من الغرور ، ويحفظه من الطغيان ، ويعدل به عن السبيل الجائرة ، وهو يقدر أن هذا الطفل سيبلغ أشده يوماً ما ، وسيستطيع أن يضع نفسه موضعها وألا يتجاوز بها حدّها ، ولا يخرج بها عن طورها المقسوم لها . فإذا بلغ العقل أشده وانتهى إلى هذه المنزلة من النضج ، أنزل الله عليه السكينة ، وأظهر له المعجزة الكبرى التي تتجه إليه ، وتنفذ إلى أعماقه ، وتضطره إلى الإيمان بها عن فهم وروية ويقين ، لا عن خوف وفزع وإذعان

قال الفتى ، وقد أخذ منه الشغف والكلف والشوق مأخذاً عظيماً

كاد يخرججه عن صوابه : وترانا نبليغ هذا الوقت الذى ينضج فيه العقل لفهم هذه الآية الكبرى وحمل هذه الأمانة العظمى ؟

قال الشيخ : فقد نضج العقل يا بنى ، وإنه ليدعو هذه الآية بكل ما فيه من قوة ، وإنه ليتجه إلى السماء اتجاء المتلهف المشوق ، يستنزل منها هذه الآية . ولو استطاع لطار إلى السماء ، ولكنه قد فقد جناحيه منذ أهبط إلى هذه الأرض ، كما يقول أصحاب أفلاطون ؛ فهو مضطر إلى أن ينتظر رسالة الله ، وإلى أن يصبر حتى يأتيه اليقين .

قال الفتى : وكيف عرفت نضج العقل وقربه من هذا الوقت الذى يخرج فيه من الظلمة إلى النور ، ومن القلق إلى الاطمئنان ؟

قال الشيخ : لقد حدثتكم ببعض ما رأيت فى رحلتى تلك إلى بلاد العرب . وما أرى إلا أن حديثى ذاك قد أدخل على نفسك بعض القلق الذى أنت فيه ، كما أدخلت رحلتى على نفسى هذا القلق الذى انتهى بي إلى هذا الدير .

فانظر يا بنى ، كما أنظر ، إلى الناس من حولك ! ألسنت ترى ياساً من كل شىء ، وضيغاً بكل شىء ، وانتظاراً لشىء لا يعرفون ما هو ، وطموحاً إلى مثل أعلى يلمحونه ولا يستطيعون تصويره ولا تصوره ؟ ثم انظر إليهم وفكر فى أمرهم ، أرايتهم قد اضطربوا وساءت أحوالهم وفسدت الصلوات بينهم كما تراهم الآن ؟ ! إن هذا لشىء يراد يا بنى ، وما كان الله ليدفع الناس إلى هذا اليأس المهلك إلا وهو يقدر لهم رحمة تخرجهم منه ، ويهيئ لهم نوراً يحو عنهم ظلمته القائمة .

أقم يا بنىّ معى ؛ فإنى لا أقيم فى هذا الدير عبثاً ، وإنى لم أختره
دون غيره من الأديار التى تنبث غير بعيد من مدينتنا إلا ولى فى
اختياره أرب .

قال الفتى : وما ذاك ؟

قال الشيخ : هو هذا النبأ الذى أنتظروه ، وما أشك فى أنه
سيبلغنى أو فى أن بشارته ستبلغنى عما قليل . أقم يا بنىّ ! لقد رأيت
بشائر هذا النبأ يتبع بعضها بعضاً فى تلك البلاد التى أقيمت فيها أعواماً .
وما أشك فى أن هذه البشائر ستتجاوز هذا الوجه من أقطار الأرض
وستبلغنا . ولو استطعت أن أقيم فى البلاد التى ظهرت فيها تلك الآيات
لما زُلت عنها ، ولكنها ليست لى بوطن ! فأنا أقيم منها غير بعيد ،
وأنظر أنباءها من يوم إلى يوم . ولقد حدثت بأحاديثها إلى رهبان
هذا الدير ، فاضطربوا لها كما تضطرب لها أنت الآن ، وكما اضطربت
لها أنا من قبل . ومنهم شاب آراى من أهل الجزيرة استخفته هذه
الأحاديث ؛ فلم يملك نفسه ولم يستطع أن ينتظر كما ننتظر فى هذا
الدير المطمئن ! ولكنه ارتحل عنا ، وأمعن فى الصحراء إلى أقرب
موضع ممكن من هذه البلاد ! واتخذ لنفسه هناك صومعة يقيم فيها ،
قريباً من الجادة حيث تمر القوافل التى تحمل إلينا تجارة تلك الأرض ،
يريد أن يسبقنا إلى العلم بهذا النبأ العظيم . وقد عودنا إذا مرت عليه
القوافل فسألها واستقصى أخبارها ، أن يزورنا فيحدثنا بما سمع وبما
نقلت إليه القوافل . وإنه ليحدثنا بالأعاجيب يا بنىّ ، وإن موعد
زيارته قد أظلمنا ! فهذا أوان مرور القوافل فى تجارتها إلى أرض الشام .

وما أراك ستطيل المقام هنا قبل أن ترى بحيرى مقبلا علينا بأخبارها
ينثرها بيننا فرحاً ، مرحاً ، مبهجاً ، كأنه الفتى الكريم ، يجد اللذة
كلها في أن يهب للناس ما جمع من ماله .

أقم يا بنى ! لقد كان عقلك ينكر المعجزات ، ويزعم أنه لن
يؤمن حتى يرى . فسبرى عقلك يا بنى . سيعيش في عصر المعجزات .
وسيكون حظك خيراً من حظى ومن حظ أمثال الذين تقدمت بهم السن .
سنرى نحن البشائر وقد لا ندرك جلية الأمر . أما أنت فسرى البشائر
كما نراها ، وقد تبلغ من صريح الأمر ما لا نبليغ ، وتنال من الفوز
ما لم يقدر لنا أن ننال .

قال ذلك وانهلث من عينيه عبرات غزار احتبس لها صوته في
صدره . فهض الفتى إليه وقبله وفداه ، وما زال به حتى عاد إلى
ما كان عليه من الهدوء والوقار . فقال في صوت مطمئن : انتظر يا بنى !
فليأتينك النبأ غداً أو بعد غد . وإذا بلغت ما لم نبليغ وانتهيت إلى ما لم
ننته نحن إليه ، فاذكرونا من حين إلى حين ، وقل لنفسك إنا كنا
نتحرق شوقاً إلى بعض ما تجد من راحة أو نعيم .

٧

وقد أقام القتي في هذا الدير أياماً طويلاً ، مضطرباً بين شك يقسو عليه حتى يكاد يهلكه ، واطمئنان بشيع في نفسه حتى يفتح له إلى الأمل أبواباً عراضاً . يخالو إلى نفسه ويعرض أمره ، فيظهر له مظلماً قائماً وبشعاً منكراً ! يوئسه ، أو يكاد يوئسه من كل شيء ، ويسلط عليه من شياطين الحيرة ما ينغص عليه يقظته ، ويذود عنه نومه ، أو يفسد عليه أحلامه إن غلبه النوم .

وكان يفرغ من هذا الشك أحياناً إلى كتب الفلاسفة ، يطيل النظر فيها والوقوف عندها ، فلا يبلغ من مصاحبته ومعاشرتها أصحابها شيئاً . ومع ذلك فقد كانت هذه الكتب ، فيما مضى من حياته ، غذاء لنفسه وقلبه وعقله ، يجد فيها من اللذة ونعمة البال ما لا يشبهه إلا ما كان يجده أصحابه من اللذة في عبادة أولئك الآلهة القدماء بما كانوا يحبون أن يعبدوا به من ألوان اللهو والعبث والمجون . وكان يفرغ من هذا الشك أحياناً إلى الكتب المقدسة ، يطيل النظر فيها ، والوقوف عندها ، فيفهم أحياناً ، ويعجز عن الفهم أحياناً أخرى ، ولا يطمئن قلبه في حال من الأحوال .

كانت نفسه تحدّثه بأن وراء هذه المعجزات التي تمتلئ بها التوراة والإنجيل وقلوب الناس وأحاديثهم ، حقاً لا ينبغي أن يكون فيه شك . ولكن عقله كان عاجزاً عن أن يسيغ هذه المعجزات ، أو يُحسن الإذعان

لها والرضا عنها . فكان الفتى مقسماً ، إذا نظر في الكتب المقلمة ، بين إيمان يشيع في قلبه ويدعوه إلى الرضا والاطمئنان ، وشك يشيع في عقله ويدعوه إلى التمرد والجحوم . وكان يجد في هذا التناقض بين قلبه وعقله ألماً لا ذعاً عميقاً عنيفاً ، زهده في كل شيء ، ويكاد ينتهي به إلى الجنون أو ما يشبه الجنون .

هنالك كان يفزع من قلبه وعقله ، ومن كتب الفلاسفة وأسفار الدين ، إلى حنان ذلك الراهب الشيخ ، فيجد عنده بعض ما كان يحتاج إليه من الراحة وهلهو البال ، ويجد عنده هذا الحب الذي يُشعره الشجاعة والصبر ، ويدرك في نفسه جذوة الشوق إلى هذه البشائر التي كان يسمع عنها ولا يراها ، ويتحرق شوقاً إليها ولا يجد ما يخفف لوعته أو يتفجعُ غلته .

ولأنه لمع أستاذه الشيخ ذات يوم ، وقد اصفر وجه النهار ، وشاعت الكتابة فيما يحيط بهما من الحياة والأحياء ، وهدأت لذلك نفوسهما ، كأن هذا الحزن الشائع الهادي قد مسهما يجناحه فأشاع فيهما شيئاً من الكتابة والهلهو انخفضت له أصواتهما شيئاً ، فهما يتحدثان حديثاً يشبه الهمس ، ولو استطاعا لآثرا الصمت ، وليبلغ كل منهما قلب صاحبه من طريق هذا الصمت العميق ! ولكنهما كانا يتحاملان ويتكلفان الحديث ، وقد كاد السأم يبلغ نفس الراهب الشيخ الذي كان لا يعرف سأمأً ولا مللاً ، والذي كان يزود عن صديقه الشاب كل سأم وكل ملل . ولكن انتظارهما قد طال وأسرف في الطول ، ولم يأتها النبأ الذي كانا يتظرانه ، ولم يزرهما بحيرى الذي كان خليقاً

أن يزورهما منذ عهد بعيد ! فقد مرّت القوافل إلى الشام ، وليس من شك في أنها قد أمّعت في بلاد الروم ، فباعت واشترت وعادت إلى أوطانها ، ولم يأت بحيرى ولم يأت من نَبته قليل ولا كثير - أقول : إنهما ذات يوم لقي هذا الحديث الشاحب الكئيب ، وقد كاد السأم وطول الانتظار ينهيان بهما إلى اليأس ، وإذا ضجيج يذنو منهما ، وإذا هما يُنصتان كأنما يريدان أن يتعرفا مصدره . ولكن الضجيج يذنو حتى يبلغ الدير ! وينهض الشيخ وصاحبه الفتى ليعرفا من أمره ما يجهلانه ! فما أسرع ما يمتلئ قلب الشيخ إيماناً ورضاً ! وما أسرع ما يضطرب قلب الفتى إشفافاً وخوفاً !

هذا بحيرى قد أقبل ، ولم يقبل وحده ، وإنما أقبل معه عدد غير قليل من الناس ، وقد أهمهم أمر ذو بال ! فهم يلغظون في كثير من الدهش والحيرة ، منهم من ينكر ، ومنهم من يعرف ، منهم من يرضى ، ومنهم من يسخط ، وأهل الدير يسألون ويستنبطون فلا يظفرون من الجواب إلا بهذا اللغظ الذى تختلط فيه المعرفة والإنكار ، والتصديق والتكذيب ، والشك القائم واليقين المشرق . فأما بحيرى نفسه فقد كان خارجاً عن طوره ، يأتى من الحركات بيده ووجهه وجسمه كله ما لم يتعوّد أهل الدير الإتيان به .

وكان كلما دنا من الراهب الشيخ ازداد هيامه وتولبه ، حتى إذا رآه عدا إليه عدواً ، ولم يكذب بلغته حتى ألقي نفسه بين ذراعيه ، وجعل يضمه ويقبله ويقول في صوت يقطع البكاء ويبله الدمع الغزير : لقد رأيت ! أقسم لقد رأيت ! أشهد بالمسيح والصليب لقد رأيت ! لقد رأيت واقتنعت .

لن يبلغ نفسى الشك بعد اليوم . لقد رأيت ! أقسم لقد رأيت !
والراهب الشيخ ، يهدته وبيارك عليه ، ويسأله عما رأى ، ويدعوه إلى
أن يقلل من هذه الأيمان ، ويخفف من هذه الحدة ، ويردّ نفسه إلى
صوابها واطمئنانها شيئاً ، ويحدثه بجملة ما رأى وخلاصة ما اقتنع به .
وما يزال الراهب الشيخ بهذا المتوله الهائم حتى يرد عليه بعض الهدوء ،
ويظفر منه ويمن حوله بشيء من الأناة والوقار .
ثم يسأل الراهب الشيخ صاحبه بجبرى ، وقد اطمأنت نفسه، أن
يقص عليه بدء حديثه .

فيقول :

٨

من شاء فليشك ، ومن شاء فليستيقن . أما أنا فلن يجد الشك إلى نفسى سبيلا بعد اليوم . لقد تأذن الله بأن كل شيء من حولنا سيغير . فطوبى للذين يبلغون الآية الكبرى ! وطوبى للذين يرونها فتقبلها قلوبهم مطمئنة إليها ، وتقبلها عقولهم مؤمنة بها ؛ ورحمة للذين تقصر بهم آمالم عن بلوغ هذا الوقت السعيد ؛ والويل كل الويل للذين يرون ثم لا يؤمنون !

قال الراهب الشيخ : فحدثني يا بنى بما رأيت ، حتى إذا فرغت من حديثك فكن كما شئت مبشراً ومنذراً .

قال بحيرى : لقد رأيت ، ما يبلغنى فى ذلك شك ، وما يمضى فيه ريب .

قال الشيخ : من هذا الذى رأيت ؟

قال بحيرى : هو الذى سيغير من حولنا كل شيء . وهو الذى سيتم ما جاء به الأنبياء والرسل . هو الذى سيحقق ما بشرت به الكتب المقدسة . هو الذى سيصدق ما امتلأت به التوراة والإنجيل .

وكان الذين يسمعون هذا الحديث قد أخذت عليهم ألبابهم واختلطت عليهم أمورهم ؛ فكانوا يسمعون ومنهم الشاك المرتاب ، ومنهم المشوق إلى التصديق المشغوف بالإيمان ، الذى لا ينتظر إلا أن تهدأ عن هذا المتحدث ثورته ، فيفصح عما فى نفسه ويعرب عما يريد أن يقول .

وكان الراهب الشيخ والفيلسوف الفتي قد بلغا من هذا الشوق أقصاه حتى كأنهما استحالا شوقاً خالصاً .

فلما طال على الراهب الانتظار ، وكاد يفقد الصبر ، قال لصاحبه بحيرى وهو يتكلف الأناة والهدوء : مهلاً يا بُنَيَّ ! إن كنت تريد أن نصدقك فاقصص علينا أمرك ! فإن إطالة التشويق توشك أن تنهى بك وبنا إلى اليأس المهلك !

قال بحيرى : إنك لتعلم لماذا تركت هذا الدير منذ عهد بعيد ، ولماذا أمعنت في الصحراء حتى اتخذت صومعتى فى أقرب مكان من هذه البلاد التى حدثتنا عنها بالأعاجيب . لقد أقمت فى هذه الصومعة كما تعلم ، أنتظر من أنباء تلك البلاد ما كنت تنتظر ، وأترقب من أخبارها ما كنت تترقب . وإنك لم تكذبنى فيما نقلت إليك من أحاديث الناس عما حدث فى تلك البلاد بعدك من أحداث ، يرونها ولا يفهمونها ، ويتناقلونها ولا يستطيعون لها تفسيراً ، ولكنهم إذا رأوا منها شيئاً أو سمعوا من أخبارها طرفاً ثم أعياهم الفهم والتأويل ، قالوا : إن لهذا لشأناً .

ولقد كنت أحدثك بما أسمع من الأعاجيب ، فكنت تقول وكنت أقول معك كما يقول هؤلاء الناس : إن لهذا كله لشأناً . ولكنك أنت كنت تعلم هذا الشأن . ولكنى أنا كنت أعلم هذا الشأن ! لأننا نجد عندنا مكتوباً فى الكتب . ولأننا نجد علمه عندنا موروثاً عن الأحيار والرهبان .

ألستا نتظر أن يظهر فى تلك البلاد رجل يتم الله على يده

ما بدأ من رسالته إلى الناس ؟ !

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : فلانى أقسم لقد رأيته !

قال الراهب وهو يهز رأسه وقد ظهر على وجهه الشك المؤلم :

ما أرى يا بنى إلا أنك قد أخطأت أو خُدعت ! فإن أوان هذه

الرسالة لم يأت بعدُ وإن كان قريباً .

قال بحيرى : ومن زعم لك أن أوان هذه الرسالة قد آن ؟ !

قال الراهب الشيخ : ألم تنبئني أنك قد رأيته ؟ !

قال : بلى ! قد رأيته ، أقسم لك رأيته . ولكنه ما زال صيباً

لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره المبارك بعدُ .

قال الراهب وقد أشرق وجهه : أما الآن فعسى أن تكون

مصيباً . أستطيع أن أسمع لحديثك . كيف رأيته وكيف عرفته ؟

قال بحيرى : لقد رأيته ولقد حميته . بل ماذا أقول ! غفرانك

اللهم ، فأنت وحدك الذى تملك حمايته وتبلغ منها ما تريد حتى يُتم

أمرك ، ويبلغ رسالتك إلى الناس .

قال الراهب الشيخ : قل يا بنى ، فقد شققت علينا وكلفتنا

أكثر مما نطق .

قال بحيرى : أنشدك الله ، ألسنا نعلم أنه سيولد فى تلك الأرض

التي كان فيها ما حدثتنا به من أمر الفيل ؟ !

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : أنشدك الله ، ألسنا نعلم أنه سيولد يتيمًا يموت عنه

أبوه وهو جنين ؟ !

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : أنشدك الله ، ألسنا نعلم أن أحداثاً عظيماً ستحدث
يوم مولده يحسبها الناس ولا يتبينونها ؟ !

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : ألسنا نعلم أنه سيفقد أمه ولما يتجاوز السادسة
من عمره ؟ !

قال الراهب الشيخ : بلى !

قال بحيرى : ألسنا نعلم أنه سيفقد جدّه ولما يتجاوز السابعة
من عمره ؟ !

قال الراهب الشيخ بلى !

قال بحيرى : ثم ألسنا نعلم أنه سيظل في كفالة عم له يحميه
ويرعاه حتى يبلغ أشده ، ثم يقوم دونه حين يجد الجسد ويتألب عليه
عدوه من المشركين ؟ !

قال الراهب الشيخ : بلى ! كل هذا نقرؤه فيما نقرأ من كتبنا ،
أو نتوارثه فيما نتوارث عن أجدادنا ورهباننا .

قال بحيرى : ثم ألسنا نعلم آخر الأمر أن الله قد ميزه من غيره من
الناس بعلامة مادية ترى وتُحس ويعرفها الراسخون في العلم ولا يرتاب
فيها إلا المبطلون أو الجاهلون ؟ !

قال الراهب الشيخ : بلى ! هي هذا الخاتم بين كتفيه .

قال بحيرى : فإذا حدثتلك بأنى قد رأيت هذا الصبي ، ورأيت

مع عمه هذا الذى يكفله ، وعرفت أن اسم هذا الصبي محمد ، وأن اسم أبيه عبدالله ، وأن اسم جده عبد المطلب ، هذا الذى رأيته أنت عند أبرهة وحدثتنا من أنبائه بما تعلم .

قال الراهب الشيخ وقد اضطرب لهذا الحديث أشد الاضطراب :

وإنك لتزعم أنك قد رأيته ؟ !

قال بجيرى : اللهم اشهد أنى رأيته ، ورأيته مع عمه أبى طالب ،

وعلمت ما حدثتك به من أن أباه قد مات عنه جنيئاً ، وعلمت

ما أشرت إليه من أن أمه قد ماتت عنه فى بعض الطريق ولما يتجاوز

السادسة من عمره ، وعلمت أنه عاد إلى وطنه تكفله أمة ورثها عن أبيه

قبلته مأمته وردته إلى جدّه الذى كفله وحماه . ثم علمت أن جدّه هذا قد

مات عنه وأوصى به إلى عمه ، وأن عمه قد قام دونه يكلّؤه ويرعاه

ويؤثره على ولده ، وأن الصبي يبادلّه حباً بحب ويجزيه حناناً بحنان .

ولقد حدثنى عمه أنه خرج فى تجارته مع قومه ، فكان يجد أماً مبرحاً

لفراق هذا الصبي ، ولكنه كان يشفق عليه من مشقة السفر وجهد الطريق .

فلما كان اليوم الذى فصلت فيه القافلة تعلق الصبي به وجعل يتوسل

إليه فى أن يستصحبه ، ويزعم له أنه لا يستطيع المقام إلا فى كتفه .

فصادف دعاء الصبي هوى فى نفس الشيخ فاستصحبه ، ومرّ به على

صومعنى فيمن مرّ من قومه وهم يقصدون قصد الشام .

قال الراهب الشيخ وقد بهره ما سمع وقد أطرق القوم من حوله سكوتاً

كأنما عُقدت ألسنتهم فلا يستطيعون أن يديروها فى أفواههم :

ولكن كيف عرفته ؟ وكيف اهتديت إلى مكانه من قومه ؟

قال الراهب : فهذه هي الآية التي ستقنعك كما أقنعني ،
وستزيل عن نفسك الشك كما محته من نفسي محواً . أنشدك الله أعلم
أنى عندك صادق ثقة مأمون ؟

قال الراهب الشيخ : اللهم نعم !

قال بحيرى : نعم رأيت هذا ، ولكنى رأيتته وحدى ، ولم يره
أحد من أولئك الذين كانوا يصحبون الصبي . فإذا حدثتكَ به فإنما
أحدثك بما رأيت وبما لم ير غيرى من الناس . فأما هؤلاء فقد ظنوا
بى الظنون وأما أنت

قال الراهب الشيخ : فما أنكر شيئاً مما تقول .

قال بحيرى : وأعجب من هذا أنى كنت قد أنبئت بما رأيت !
قد ألتى ذلك فى رُوعى أثناء النوم فى صورة مجملة غامضة ، ولا أكاد
أبين منها إلا أنى أحسست فى تلك الليلة أن سيحدث لى حدث
ذو بال إذا كان الغد . فأصبحت وإنى لأنتظر شيئاً ، وأضحيت وإنى
لمستيقن أن سيحدث لى بعض الأمر . وما هى إلا أن يرتفع الضحى
وإذا أنا أطلع من أعلى الصومعة فأرى ما يملؤنى روعة وروعاً : أرى
هذا الصبي يتفرد بهذا الظل دون أن يشعر بذلك أحد ، ودون أن يلتفت
هو نفسه إليه أو يشعر به ، حتى إذا دنت القافلة وحطت رحالها ،
جعل الصبي كلما انتقل انتقلت معه صحابته تلك ، تُظله وتقيه حرّ
الشمس ، ولا يشعر بذلك أحد ، ولا يفتن لذلك إنسان . وأسأل
من حولى : أيرون ما أرى ؟ فإذا هم كغيرهم من الناس لا يرون .
وأدعو القوم إلى طعام قد أعددتهم لهم لما رأيت ولما كان قد ألتى فى

رُوعى ! فكلهم يستجيب لدعوى إلا هذا الصبي ، فإنهم يخلفونه
في رحالم . فأسأل وألح في السؤال ، حتى أعلم أنهم قد حضروا جميعاً
طعامي إلا هذا الغلام ، فألح في حضوره فيحضره القوم ، ولأنهم
ليتلاومون على أن خلفوه ! حتى إذا رفع القوم أيديهم عن الطعام، أخذت
أحتال حتى أدخلوا إلى الشيخ الذي يصحب هذا الصبي . فما أزال
أسأله وأستصص أمره ، حتى أعرف من حال الصبي ما حدثت بك به .
ثم أتحدث إلى الصبي نفسه ، فيالوجه المشرق المطمئن 'بني' عن
نفس مشرقة مطمئنة ! وباللصوت العذب 'بني' عن خلق عذب !
وباللحديث الكريم 'بني' عن قلب كريم ! وإلى لأسأل الصبي
وأستحلفه بأوثان قومه ، فلا أرى منه إلا تقوراً وازوراراً ، وإذا هو
ينبني بأنه لم يبغض شيئاً قط كما يبغض هذه الأوثان . فأستحلفه
بالله ليصدقني الحديث فيما أسأل عنه ، فيجيبني إلى ما أردت .
وأنا أسأله عن أمره ، جليه وغامضه ، وعمما ينبغي أن يحدث له يقظان ،
وعما ينبغي أن يحدث له ناعماً ، وعمما ينبغي أن يحدث له مجتمعاً إلى
الناس ، وعمما ينبغي أن يحدث له خالياً إلى نفسه ، فلا يجيبني إلا
بما كنت أنتظر أن يجيبني به .

هنالك لم يبق في نفسي إلا أن أرى هذه الآية المادية بين كفتيه ،
فأنتظر فأرى ، فأقبل هذا الخاتم الكريم . وقد امتلأ قلبي حباً للصبي ،
وبراً به ، وإشفاقاً عليه من يهود ، فإنهم يعرفون من أنبائه مثل
ما نعرف ، ويستظرون من أمره مثل ما نتظر ، ولكنهم يشفقون منه
ويريدون به سوء .

وإذا أنا أتقدّم إلى عمه الشيخ أن يعود به أدراجه ، وأن يبائع
في حمايته وحياطته وصيانته من كيد يهود .

وإذا الشيخ بسمع لي في غير تردّد ، ويستجيب لي في غير
مشقة ، ويعود أدراجه بالصبيّ ، ينتحل لذلك العلل والمعاذير ، ويكل
إلى بعض قومه أن يخلفه في تجارته .

ثمّ يطرقُ بجبري شيئاً كأنه يفكر فيما يريد أن يقول ، وكأنه يريد
أن يكره نفسه على كتمان بعض الأمر ، ولكنه يعجز عن هذا الكتمان ،
ويرفع رأسه إلى الراهب الشيخ ويقول في صوت هاديّ مطمئن :
ولم يكد الشيخ يعود أدراجه بالصبيّ حتى يقبل عليّ هؤلاء - ويشير
إليّ بعض من صحبه - يلوموني أعنف اللوم ، ويشاوروني في البغي على
هذا الصبيّ . ولكن الله قد تأذّن ليعصمه من كل شرّ ، وليحمينه
من كل مكروه . ولولا ذلك لما رددتهم عما كانوا قد دبروه .

قال الراهب الشيخ : ما أرى يا بنيّ إلا أنك قد حدثتنا حديثاً
صدقاً ! فطوبى لهذا الصبيّ ! وطوبى لمن يصحبه ! وطوبى لمن يدرك
عهده ويؤمن به ؛ وطوبى لك فقد رأيت ما لم نر ، وكنت موفقاً حين
أبيت إلا أن تسبقنا إلى أعماق الصحراء ، لتسبقنا إلى العلم بأنبائها .
ثمّ التفت إلى صديقه الفيلسوف الشاب فإذا هو واجم ، مغرق في
الذهول ، فيمس الراهب الشيخ كفه كالمنبه له ، ثمّ يسأله :
أسمعت ؟

قال الفيلسوف الفتى : نعم !

قال الراهب الشيخ : فإذا ترى ؟ وماذا تقول ؟

قال الفيلسوف الفتي : فإنى أستاذك وأستاذن هذا الأخ
الكريم فى أن أترك هذا الدير إذا تركه ، وفى أن أعيش معه فى صومعته ،
لأنتظر معه أنباء الصحراء ؛ فإن أنباء الصحراء هذه هى التى ستنجينى
من الشك ، وتؤمنى من الخوف ، وتدنينى من اليقين .

قال بجيرى وهو يتسم : اسبقنى أيها الأخ الكريم إلى الصومعة إن شئت ، فأقم فيها ما أحببت ، وانتظرنى ما وسعك الانتظار ! فقد أعود إليها وقد لا أعود .

قال الراهب الشيخ : ما أفهم عنك منذ الآن يا بجيرى ! أصادفُ أنت عن الصومعة ، وصاروف أنت نفسك عن أنباء الصحراء بعد أن انتهت إليك تباشيرها ؟ وما أحسب إلا أنها ستواتر ، وسيبغ بعضها بعضاً في غير انقطاع ، حتى يبلغك النبأ العظيم ، إن امتدت بك الحياة إلى أن يأتى النبأ العظيم .

قال بجيرى : إني لأحتم إن أقمت في هذه الصومعة أنتظر الأنباء في طرف من أطراف الصحراء ، وأنا أعلم أين مستقر هذه الأنباء ، وأين دار الأمن والرحمة ومهبط الوحي والرسالة . ولقد همت نفسى أن أصحب الشيخ وابن أخيه إلى مكة فأقيم معهما . ولكن الله قد صرفنى عن ذلك صرفاً عنيفاً لأمر يراد ، فردد خاطره في قلبى ، ولكن لسانى لم ينطق به . ثم مضى الشيخ وابن أخيه ، ونازعنى نفسى إلى أن أتبعهما وألحق بهما ، ولكنى صرفتُ عن ذلك صرفاً عنيفاً لأمر يراد . وما أرى إلا أن الله يريد أن يحفظ على الصحراء سرّها مكتوماً مستوراً لا يظهرنا منه إلا على أيسره وأهونه ، إلا على هذا الذى يطمعنا فيه ويشوقنا إليه ، ولا يدنينا منه ، ولا يبلغنا جليته . ولولا ذلك لما انعقد لسانى حين هممت أن أعرض صحبى على الشيخ . ولولا ذلك

لما صرفت ركائبي إلى هذا الدير حين هممت أن أوجهها إلى جوف الصحراء .

قال الراهب الشيخ : فأنت تعلم يا بني أن الله يظهره على هذا الأمر قبل إبانته ، وتريد مع ذلك أن تمنع ما عرفت من تدبير الله ! قال بحيري : الله يعصمني من أن أمانع تدبيره ، وأخالف عن أمره ، أو أتمرد على قضائه . ولكن الصومعة لم تصبح لي منزلاً ولا مقاماً ، وإن لي في العراق لأرباً . وإنك لتعلم أن صديقنا « نسطور » ينتظر من الأنبياء هناك مثل ما كنت تنتظر أنت هنا ؛ لأنه يتوقع من الأمر مثل ما تتوقع . وإني لخليق أن أسرع إليه كما أسرعت إليك ، فأنيته بمثل ما أنبأتك به . وما أدري بعد ذلك أعود إلى الصومعة أم أمعن في أرض العرب ، لعلني أقرب من مكة . فأقيم منها بحيث تبلغني الأنباء ، وتنتهي إلى البشائر ، في وقت أقصر من ذلك الوقت الذي كانت تبلغني فيه وأنا مقيم بهذه الصومعة في طرف من أطراف الشام . فإن شاء هذا الأخ الكريم أن يسبقني إلى الصومعة فذلك له ، وإن شاء أن ينتظر عودتي إليك إن عدت ليصحبني إلى الصومعة فذلك له .

قال الفيلسوف الفتي : وإن شئت أن أصحبك إلى صديقك « نسطور » ، وأن أشاطرك ما تدبر من المخاطرة والمغامرة قال بحيري : فذلك لك . ولكنك رجل من الروم ، والأمر بين من في العراق ومن في الشام على ما تعرف من الفساد والنكر . ولست آمن أن تتعرض لبعض الشر أو يلم بك بعض المكروه . فأما أنا فليس عليّ من ذلك بأس ! لأنني من أهل العراق أسير سيرتهم ،

وأتكلم لغتهم ، وأنا بعدُ معروف بكثرة الرحلة والتنقل في أطراف الأرض ،
مأمون على أمر القوم ، لا يتهمونى ، ولا يشفقون منى على شيء .
قال الفيلسوف الفتي : فإنك قد أمعنت في أرض الروم ولم تلق
كيداً ، فدعنى أصحبك إلى أرض الفرس ، فلعل أن أجد فيها من الأمن
مثل ما وجدت أنت في هذه البلاد . ولا بأس عليك إن كانت الأقدار
قد أرصدت لى بعض ما يكره الناس ويخافون ؛ فإنى لا أكره شيئاً
ولا أخاف شيئاً ولا أحب شيئاً كما أحب الخروح من أرض قيصر .
قال بحيرى : فهيج نفسك إذاً للرحلة ؛ فإن الصبح لن يجدنا
في هذا الدير .

قال الراهب الشيخ في صوت حزين : فأما أنا فليس يعينكما
من أمرى قليل ولا كثير ، أنا الذى فتح لكما أبواب الأمل ، وهذا كما
إلى طريق النجاة هذه التى تبدئان سلوكها وأرجو أن تبلغا آخرها . ثم
هأنها هذان تنصرفان عنى مسرعين ، كلا كما يؤثر نفسه بالخير والعافية ،
وليس منكما من يفكر فيمن يترك وراءه من الخليل والصديق .

قال الفيلسوف الفتي وهو يقبل صديقه الشيخ : إن شئت
فأصحبنا ، فما نمنعك من ذلك وما نردك عنه . ولكنك حين أقبلت على
هذا الدير قد تركت وراءك أصدقاء لم تحفل بهم ولم تفكر فيهم .
فأنت قد سنتت لنا هذه السنة ، وفتحت لنا هذه الطريق .

قال الراهب الشيخ : فإنى لا أنكر عليكما شيئاً ، ولا ألومكما فى
شيء ، ولو استطعت لكنت ثالثكما ، ولكنى مقيم هنا حتى يأتى أمر

الله ؛ فامضيا راشدين . وإذا لم يقدر لنا اللقاء في هذه الأرض فلا
أقل من أن نطمع عندكما في مودة القلب ووفاء الضمير .
وأسفر الصبح فلم يجد هذين الشابين في الدير ، وإنما وجد الراهب
الشيخ وحيداً مطرقاً مفرقاً في التفكير ، كأنما أرسل نفسه لتشييع
صاحبيه ، وهو ينتظر أن تعود إليه .

ولست أدري بماذا رجعت نفس الشيخ إليه بعد أن انصرفت عن صاحبيه وقد أمعنا في الصحراء . ولكنها لو اطلعت على ضمير كلكراتيس ثم حدثت الشيخ بما رأت ، لأثارت في قلبه حزناً شديداً ؛ فقد أمعن الرفيقان في سفرهما البعيد ، مستبشرين أول النهار ، قد غمرهما نوره المشرق الذي ملأ الصحراء حتى امتزجا به امتزاجاً ، وأحس كل واحد منهما كأن نفسه ليست إلا قبضة من هذا النور القوي الخفيف قد شاعت في عقله ، وقلبه وجسمه ، فإذا هو فرح مرح ، يندفع أمامه لا يلوى على شيء . ولولا فضل من وقار لانطلق لسانه بالغناء . وما له لا يفعل وكل شيء من حوله مشرق ، مبهج يتغنى أو يدعو إلى الغناء !

ولكن الضمحي يرتفع ، وحرارة الشمس تبلغ جسم هذين الرفيقين وتثقل عليهما وتردّهما إلى شيء من الأناة والرؤية ، وإذا نفس الفيلسوف الشاب تتقبض قليلاً قليلاً ، ويدنو بعضها من بعض حتى تنحاز إلى مكانها من رأس صاحبها أو من قلبه ، من جسمه على كل حال ، فهي كائن ممتاز لا يشيع في الفضاء ولا يمتزج بما حوله ، وإنما هو في حيزه الذي قسم له . يحس نفسه ويفكر فيها ويعكف عليها ، ويستحضر من أمره ما مضى ، ويريد أن يستعرض من أمره ما لم يتكشف عنه الغيب بعد .

وإذا الفيلسوف الشاب يذكر بدء قصته ، وينتهي إلى هذا الحديث الطريف الغريب الذى سمعه من بحيرى حين آذنت شمس الأمس بالغروب ، فأذهله عن نفسه ، وأرقه بقية ليله ، وأزعجه عن الدبر وعن صديقه الشيخ ، كما أزعجه حديث ذلك الشيخ منذ حين عن صديقه وأهله وعن مدينته التى استقبل فيها الحياة وعرف فيها لذات الشباب .

وقد كان هذا كله خليقاً أن يدفع كلكراتيس إلى بعض الحديث ؛ فإن هذه العواطف المضطربة والذكريات القوية المختلفة قلما ترضى بالكتمان أو تطمئن إلى السكوت . ولكن الفتى أغرق فى صمت غامض عميق ، ظاهره استقرار النفس وهدوء البال ، ومن ورائه صراع عنيف ، بين قلب يشرق فيه نور اليقين فيملؤه رجاء وأملا ، وعقل تكنتفه ظلمة الشك فتدفعه إلى التناول واليأس دفعا . فما زال الفتى بعد هذا الذى اختلف عليه من أطوار الحياة ، وبعد ما قرأ فى الكتب وما سمع من صديقه الشيخ ، وبعد هذا الحديث الطريف الذى سمعه من بحيرى حين انحدرت الشمس إلى مستقرها الغربى أمس - ما زال الفتى بعد هذا كله ، وبراغم هذا كله ، كما كان ، حائراً مضطرباً ، مولته النفس يكاد يمزقه الصراع بين قلبه وعقله تمزيقاً . قد زهد فى آهته القدماء منذ عهد بعيد ، وتبين له أنه لم يكن يخلص لهم الدين حين كان يعبدهم مع صاحبيه إذا جنهم الليل فى قصر الحاكم ، وإنما كان يتخذ عبادتهم وسيلة إلى إرضاء نفسه ، وقضاء مآربه ، وتحقيق لذاته المادية التى كانت تأتيه من اللهو والعبث ، وتحقيق لذة معنوية أخرى

كانت تأتيه من هذا الامتياز الذي كان يخرج به عما ألف الناس ،
ويمكنه من عصيان قيصر ، والمخالفة على أمر السلطان .
وهو قد نظر إلى دين المسيح فأطال النظر ، وفكر فأطال التفكير ،
ولكنه أعرض عنه في أول الأمر أشد الإعراض ؛ لأن القانون كان
يفرضه ، ولأن السلطان كان يأخذ الناس به أخذاً ، ويبطش بالراغبين
عنه والملاحدين فيه . وما ينبغي للدين أن يكره الناس عليه إكراهاً ،
وأن تفرضه القوة القاهرة على النفوس فرضاً ، وإنما هو ينبوع رحمة
وحنان يجب أن تصبو النفوس إليه عن رضى ، وتهوى إليه القلوب عن
حبة وشوق .

ثم حدثه الراهب الشيخ بما حدثه به من المعجزات التي يقص
الإنجيل أنباءها ، وتجتمع قلوب الناس على الإيمان بها والإكبار لها ،
ومن هذه البشائر التي رأى أوتها في رحلته تلك ، وما زالت تتواتر ويقفو
بعضها إثر بعض ، حتى كان ما سمعه أمس من رفيقه هذا الذي
يسايره مغرقاً مثله في صمت عميق . سمع حديث هذه البشائر ، وتلك
المعجزات ، فقال إليها قلبه ، واستراح ضميره ! ولكن عقله ما زال
لها منكرًا ، وعنها مزورًا ؛ لأنه عقل فيلسوف ، قد نشأ على حكمة
اليونان ومنطقهم ، ولم يتعود أن يطمئن إلى ما يخرج عما لهذه الحكمة
والمنطق من قانون .

كان هذا كله حديث نفس القبي منذ ارتفع الضمحي ، وثقلت عليه
حرارة الشمس . وكان يجحد في هذا الحديث عناء شديداً ، وهماً ثقيلاً !
فهو لم يتحدث به إلى نفسه مرة ولا مرتين ، وإنما كان يتحدث به إليها

ويسمعه منها ، مصبجاً وممبياً ، مضطرباً في الأرض ومطمثاً في مضجعه . فلما طال عليه الجهد وبرح به الألم ، تكلم ، لا راغباً في الكلام ولا منتظراً منه دواء لدائه أو شفاء لعلته ، ولكن ليخرج نفسه من طور إلى طور ، وليشغلها عن هذا الصراع العنيف الأليم بين قلبه الذي يريد أن يطمئن ، وعقله الذي لا يريد ، أو لا يستطيع ، أن يتحول عن الشك .

قال كلكراتيس لرفيقه بيجري : رأيت لو أني حدثتك بما قصصت علينا من أبناء هذا الصبي العربي أكنت تصدقني أو تطمئن إلي؟ قال بيجري : فإن الأمر مختلف أشد الاختلاف .

قال كلكراتيس : وما ذاك ؟

قال بيجري : فإني لا أصدق الناس جميعاً ، ولا أكذب الناس جميعاً . وأنا آمن لمن عهدى به الأمانة والصدق ، وأرتاب فيمن عهدى به الخيانة والمين . وللحق بعد آيات تدل عليه ، وعلامات تهدي إليه . ونحن لم نبتكر أمر هذا الصبي العربي ابتكاراً ، ولم نخترعه من عند أنفسنا ، وإنما حفظته الكتب ، وتحدثت به النبوات ، وتناقله الصالحون الصادقون من أحبارنا ورهباننا ، يورثه بعضهم . بعضاً ، ويعهد بانتظاره بعضهم إلى بعض ، ويتواصون بترقبه واستقصاء أنبائه ؛ حتى إذا بدرت بوادره ، وظهرت بشائره ، أقبلوا إليه فنحوه ما يملكون من نصر وتأييد . ولقد أقبلت إلى هذا الدير الذي فصلنا عنه منذ حين ، وإني لأنتظر من هذا الأمر ما أنتظر ، وأرغب من أخباره ما أرقب . فما هي إلا أن

يقبل صديقنا «كلينيكوس» فيقص علينا بدء حديثه ، ونعلم منه مثل ما علمت ، حتى تشيع في قلبي ثقة قوية بأن لهذا الحديث شأنًا ، فأطير عن هذا الدير إلى صومعتي تلك في طرف من أطراف الشام . وما أكاد أستقر فيها حتى تتواتر إلى الأنباء ، وتتوالى إلى الأعاجيب ، ثم ينتهى الأمر بى هذا العام إلى ما علمت . وما أدعوك إلى تصديق ، وما أردك عن تكذيب ، وما أفرض عليك شيئاً ، وما أحظر عليك شيئاً ، ولكنى رأيت فآمنت ، وسمعت فصدقت ، ثم حدثت بما رأيت وما سمعت رجلا من أهل العلم فآمن وصدق ، وسأحدث من أعرف من أهل العلم ، وما أرى إلا أنهم سيؤمنون ويصدقون ، ومنتظرون كما أنتظر أن تظهر هذه المعجزة التى لا تدع سبيلا إلى الشك ، ولا طريقاً إلى الارتياب .

قال كلكراتيس في صوت هادى حزين ، ولكن فيه نغمة الحرص على المعرفة ، والشوق إلى اليقين ، والمعجز مع ذلك عن بلوغ ما يريد : إن قلبي ليؤمن لك ، ولكن عقلى يأبى عليك .
قال بجمبرى : فأنت في حاجة إلى أن تخلق خلقاً جديداً ، وتولد مرة أخرى ، لترى الأمر كما نراه ، وتفهمه على وجهه .

قال كلكراتيس وفي وجهه ابتسامة يائسة : إنى لا أفهم عنك . لقد قرأت هذا فى الإنجيل ، قاله المسيح لرجل من يهود ، كان يشك فى أمره كما أشك أنا الآن ، يرضى قلبه ويسخط عقله . ولكنى لا أسألك كيف أولد مرة أخرى ، وإنما أسألك كيف السبيل إلى أن أولد مرة أخرى ؟ كيف السبيل إلى أن أغير هذا العقل فأردّه إلى

اليقين الذى يخرججه من الشك ؟ أو كيف السبيل إلى أن أغير هذا القلب فأردّه إلى الشك الذى يخرججه من اليقين ؟ فأنا شقى بهذا التناقض الذى أجده بين عقلى وقلبي . وما أرى أنى سأستريح إلا أن يشكنا معاً أو يطمئنا معاً . فأما أن يذهب أحدهما نحو الشرف ، ويذهب الآخر نحو الغرب ، فهذا العذاب الذى لا يطاق ، وهذه الحياة خير منها الموت .

قال بحيرى : إني لأرحمك وأرثى لك ، ولكنى لا أحب أن تياس من رحمة الله ، أو تقنط من روجه . فخذ نفسك بالصلاة ، وأقم عليها ما استطعت فقد يمسك الله بجناح من رفقته وعطفه ، فيخرجك من الظلمة إلى النور .

قال كلكراتيس : فإنى لا أجد إلى الصلاة سبيلاً ، ولقد أخذت بها نفسى أخذاً شديداً ، فحاولت الصلاة صامتاً ، وحاولت الصلاة ناطقاً ، فجعلتُ كلما أدرت منها جملة فى نفسى أدار عقلى ، أو أدار الشيطان ، جملة أخرى تكذبها وتنفيها .

قال بحيرى : فإنى لا أملك لك من الله شيئاً . وأكبر الظن أنك فى حاجة إلى هذا الألم العنيف الذى يبهز العقل ، ويملا النفس ، ويستغرق الضمير ، والذى لا يأتى إلا من التجارب والخطوب . ثم أطرق لحظة كأنه يفكر وكأنه يدعو خواطره من بعيد ، ثم رفع إلى رقيقه وجهاً مشرقاً يصور نفساً مطمئنة ، وقال فى صوت خافت ، كأنه صوت الصلاة : أرايت أننا نصلى فنسأل الله أن يكفيننا شرّ التجارب ، ويعصمنا من مكر الدهر وآلام الخطوب ! فن يدري ؟

لعل من الخير أن تصلى فتسأل الله أن ييلوك بالتجارب ، ويمنحك بالخطوب ؛ فإن التجارب تمحص القلوب ، وإن الخطوب تطهر النفس ، وإن المحن تصفى الضمير ، وإن هذه الآلام الطارئة على غير انتظار والملمة في غير رفق ، تكف من غلواء العقل ، وتخفف من كبريائه ، وتردّه إلى التواضع ، وتشفيه من داء الغرور .

قال كلكراتيس ، وقد أنهمرت من عينيه دموع غزار : عسى أن يكون ذلك ! ولكنني في حاجة إلى أن أرى لا إلى أن أسمع ، وإلى أن أشهد لا إلى أن أقرأ في الكتب . ما قصدى إلى العراق ، وإن همى لفي الحجاز ! ما رحلتى إلى صديقك « نسطور » ، وإن شفأني لعند ذلك الصبي العربي اليتيم !

وهل عرفت الفكرة اللازمة التي لا ترسيم ، والخاطر الملح الذي لا يفصل عن صاحبه ولا يرفقه عليه ! فإني لا أعرف شيئاً أشد منهما على النفس ، ولا أشق منهما على العقل ، ولا أفتك منهما بالأعصاب . وما أرى إلا أنك ترى مثلي لهذا الفيلسوف الرومي الشاب حين علم أنه لم يكذب يُلقي إلى رقيقه جملته تلك حتى لزمته هذه الفكرة فلم تفارقه ، وألح عليه هذا الخاطر ، فلم يجد إلى التخلص منه سبيلاً .

وجعلت هذه الحملة تذهب وتجيء في رأسه كما يذهب المنشار ويحییء في الخشبة التي يريد أن يشقها : « ما قصدى إلى العراق ، وإن همى لى الحجاز ! ما رحلتى إلى نسطور وإن شفأتى لعند ذلك الصبي العربي اليتيم ! » .

وهمّ الفتى ألف مرة ومرة أن يصرف عنها نفسه ، ويحوّل عنها تفكيره ، فلم يوفق من ذلك لشيء ، وإنما جعلت هذه الحملة تدور في رأسه دوراناً متصلاً ، حتى خيل إلى الفتى أنها لون من هذيان الحمى ، وجعل يتصور في نفسه أنه مريض ، وأن شفاهه في العناية بجسمه ، لا في الذهاب إلى العراق ولا في التحول إلى الحجاز ، ولا في الرحلة إلى « نسطور » ، ولا في القصد إلى ذلك الصبي العربي اليتيم . وجعل الفتى يمتحن نفسه مغرماً في الصمت ، ويمتحن نفسه مندفعاً في الكلام ، فإذا هو لا يستطيع أن يخلص من هذا الخاطر

اللازم له الملح عليه .
وكذلك انقضى النهار ، وكذلك أقبل الليل فجعل الصحراء بظلمته
القائمة ، والفتى فريسة لخاطره هذا الملح ، لا ينقذه منه ضوء النهار ،
ولا يصرفه عنه ظلام الليل . وصاحبه يرفى به ، ويعطف عليه ، ويواسيه
حيناً بالحديث ، ويسليه حيناً آخر بما يُظهر له من مناظر الصحراء
المختلفة المتشابهة . ولكن الفتى لا يسلو ولا يتعزى ، وإنما هو خاطره
الملح قد ملأ قلبه وشغل نفسه ، وملك عليه أمره كله . ولولا بصيص
ضئيل من نور العقل كان يضبط أعصابه بعض الضبط ، وينظم
حركاته بعض التنظيم ، لما شك الفتى ولا شك صاحبه في أن عارضاً
من الجنون ألمّ به ، فأنساه ماضيه ، وشغله عن مستقبل أمره ، وردّه
إلى حال لا يصلح معها التفكير ولا التقدير .

وقد انتهى المسافران ومن كان يتبعهما من الغلمان ، حين تقدّم
الليل ، إلى حصن ضخم شاق من هذه الحصون التي كانت تنبث في
الصحراء بين الشام والعراق ، والتي كان يقيم فيها الجند حراساً للحدود
محافظين عليها ، وكان يأوى إليها السفرة الذين يضطرون إلى عبور
الصحراء .

انتهى الرفيقان وأتباعهما إلى هذا الحصن حين كاد الليل ينتصف ،
فلم تفتح لهم أبوابه ، ولم يحاولوا استفتاحها ، وإنما أجمعوا أمرهم أن
ينفقوا بقية الليل في ظله ، حتى إذا أسفر الصبح ألموا به ، فأصلحوا
من شأنهم ، وتزودوا لمرحلتهم ، ثم أستأنفوا سفرهم البعيد . وما هي
إلا ساعة حتى اندمجت هذه الجماعة الضئيلة في هذا الهدوء الشامل

من حولها ، فأصبحت جزءاً منه ، لا تحس نفسها ، ولا يحسها أحد .
وكان الفتى قد طمع في أن ما تكلف من جهد السفر وما احتمل
من مشقته ، سيدفعه إلى النوم الهادئ المريح ، فينسى فكرته اللازمة ،
ويُصرف عن خاطره الملح ، ويسترد ما أضاع من قوة ، ويجدد
ما فقد من نشاط . ولم يكذب النوم أمله ولم يُخلف ظنه ، وإنما أسرع
إليه فأظله يحتاجه ، وأفاض عليه شيئاً من هذا السكون الذي يجد فيه
الجسم راحة ، وتجد النفس فيه براءة من أضرار الحياة ، وتخفيفاً
من أثقالها - ولكن الفتى يفتق بعد ساعة ويفتح عينيه فإذا ظلمة الليل
ما زالت جاثمة على الصحراء ، وإذا أشعة ضئيلة تضطرب في هذه
الظلمة فلا تستطيع أن تجلوها ولا أن ترقق من كثافتها . ويستجمع
الفتى نفسه المشردة ، وخواطره المتفرقة ، فإذا تاب إليه رشده نظر
من حوله كأنما يبحث عن شيء لا يجده ، وقد كان في حقيقة الأمر
يبحث عن مصدر صوت سمعه حين أفاق ، ولعله هو الذي أيقظه .
والفتى لا يشك في أنه لم يسمعه في الحلم ، وإنما سمعه في اليقظة ،
أو سمعه بين اليقظة والنوم .

وكان هذا الصوت غليظاً خشناً ، وكان مع ذلك هادئاً تشيع فيه
السخرية ، وكان يقول : « عجبت للذين يريدون ولا يفعلون ، ويعزمون
ولا يتمون ، ويقصدون إلى العراق وهم في الحجاز ، ويرحلون إلى
«نسطور» وشفائهم عند الصبي العربي اليتيم » .

على أن الفتى لم يلبث أن عرف نفسه وأنكرها معاً : عرف نفسه
وفكرته اللازمة له وخاطرته الملح عليه ، وأنكر نفسه هذه المضطربة التي

عجز النوم عن أن يقهرها ، فإذا هي تفكر نائمة كما كانت تفكر يقظي ، وإذا هي تردّد في الحلم وفي جنح الليل ما كانت تردّده حين كانت مستيقظة في ضوء النهار . ويعود الفتى إلى مضجعه وقد جمع إليه إرادته كلها وعزمه كله ، وأنفق جهداً غير قليل ليردّ عن نفسه هذا الخاطر الملح ، ودعا النوم كأشد ما يكون دعاء للنوم . ولكن النوم كان قد نأى عنه ، ولكن الصوت كان لا يزال يضل إلى سمعه ، يأتيه من خارج ، يأتيه من هذا الجو المحيط به ، لا من دخيلة النفس ولا من أعماق الضمير . فلا يشك الفتى في أن إنساناً يتاجبه ويغريه ، فيسأل : « من المتكلم ؟ » ولكنه يسمع صوت نفسه فيرتاع ، وقد كان يسمع ذلك الصوت الغريب فلا يحس خوفاً ولا روعاً .

هنالك ينهض الفتى من مضجعه ، ويمشي أمامه خطوات ، ثم يتحوّل فيمشي خطوات أخرى عن يمين ، ثم يتحوّل فيمشي خطوات إلى شمال ، فلا يرى أحداً ، ولا يحس شيئاً ! فيعود إلى مكانه قلقاً بعض الشيء ، مستشعراً بعض الخوف . ولكنه لا يكاد يستقر حتى يبلغه صوت آخر يأتيه من بعيد ، فيه عذوبة ورقة وحنان ، ولكنه يسمعه ولا يفهم عنه شيئاً . فينهض مرة أخرى ، ويمضي شطر الوجه الذي يأتيه منه الصوت ، وما يزال يسعى خائفاً يترقب ، حتى يجيل إليه أنه يرى شخصاً ماثلاً ، فيدنو منه في بعض الحذر والرفق ، حتى إذا كان منه غير بعيد تبينه فإذا هو رفيقه الراهب بحيرى قائماً يصلى وقد رفع وجهه إلى السماء ، وهو يتمم في لغته السريانية التي يسمع لها الفتى فلا يفهمها . وما كان أشدّ حاجة الشاب إلى

أن يدنو من صاحبه ، فيمس كتفه ، ويدعوه إلى معونته ، ويتحدث إليه بأمر هذا الصوت الذي سمعه ! ولكنه ينظر إلى رفيقه فإذا هو غارق في صلاته ، لا يحس مكانه منه ، ولا يحس شيئاً من حوله ، ولعله لا يحس نفسه أيضاً . فيكره الفتى أن يصرفه عن هذه الصلاة ، وأن يُخرجه من هذه الحال التي يود لو أتيح له شيء مثلها أو قريب منها . ويعود أدراجيه ويستقر في مكانه ، ويدعو النزم كأشد ما يستطيع له دعاء . وينفق جهداً عنيفاً ليدود عن نفسه كل خاطر . وها هو ذا قد أخذ يستريح ، ويحس هذا الفتور الذي يشيع في أعضائه كأنه يبشره بمقدم النعاس ، فيستسلم له ، ويود لو استطاع أن يغمس فيه انغماساً .

ولكنه يسمع الصوت الغليظ الحشن ، الهادئ الساخر ، يعيد جملة تلك : « عجبت للذين يريدون ولا يفعلون ، ويعزمون ولا يتممون ، ويقصدون إلى العراق وهمهم في الحجاز ، ويرحلون إلى "نسطور" وشفاؤهم عند الصبي العربي اليتيم » .

هنالك يستوى في مجلسه وقد امتلأ رعباً ، وكظم صيحة عنيفة كادت تسبقه إلى الهواء ، فتنبه النائمين من أتباعه وتلفت إليه هذا الراهب المستغرق في الصلاة . ولكن فضلاً من حياء أمسك عليه نفسه وردّه إلى بعض الروية والأناة : فقد جعل يسائل : ما هذا الصوت ؟ ومن أين يأتيني ؟ إن كنت قد سمعته حالماً أول الأمر فلست بالحالم الآن . ثم يمتلئ قلب الفتى أمناً ودعة واطمئناناً ، وإذا هو يرى في نفسه ما لم يكن يتقدّر . ويطمئن إلى ما لم يكن يطمئن إليه ، ويستيقن أن هذا

الصوت لم يبلغه إلا لأمر يراد .

لا ينبغي إذًا أن يمضى في طريقه إلى العراق ، ولا أن يصمم على رحلته إلى « نسطور » ! فإن الله لا يريد له ذلك ولا يعينه عليه . ولا بدّ من أن يعود أدراجه حتى يبلغ الدير ، فيفضى بأمره كله إلى صديقه الشيخ ، ويتزوّد عنده بشيء من هذه الراحة التي يعرف كيف يشيعها في ضميره ، وهذا اليقين الذي يعرف كيف يملأ به قلبه . وها هو ذا ينهض ، وها هو ذا يمضى أمامه حتى يبلغ رفيقه الراهب ، فيراه ما زال ماثلاً يتمتم في لغته السريانية وقد رفع وجهه إلى السماء لا يحس شيئاً ، ولعله لا يحس نفسه . فينظر الفتي إليه ويبطل النظر ، وكأنه يريد أن يؤذنه بانصرافه عنه وتحوله إلى الدير . ولكن الراهب مستغرق في صلاته ، فما إخراجها منها وما صرفه عنها ! وهذا الفتي يتحول عن صاحبه مسرعاً ، ويمضى أمامه لا يلوى على شيء وما هي إلا لحظات تمضى حتى يصير الفتي سراً مكتوماً في هذا الضمير الغامض الذي يتألف من ظلمة الليل وامتداد الصحراء .

١٢

ثم ينبج الصبح عنه ، فإذا هو كامل القوة ، موفور النشاط ،
باسم الثغر ، مبسوط الأسارير ، لا يظهر عليه الإعياء ، وإن كان
قد تكلف مشقة سفر متصل لم يسترح من جهده إلا هذه الساعات
القليلة التي كانت إلى التعب أقرب منها إلى الراحة ، وإلى الخوف
المضني أدنى منها إلى الأمن والهدوء . وإنما يظهر على وجهه شيء
آخر يصور نفساً راضية ، وقلباً مطمئناً ، ونيمٌ بأن الفتى قد يرى
من هذا القلق الذي كان يساوره ويفسد عليه أمره . ولا غرابة في
ذلك ! فقد كان يريد أن يرى وأن يشهد . أو ليس قد رأى وشهد !
إنه لم ير شخصاً ماثلاً يصدر إليه هذا الصوت الذي رده عن العراق
وحوله إلى الدير ، ولكنه قد سمع هذا الصوت ، سمعه غير مرة ،
وسمعه يأتيه من خارج نفسه ، لا من دخيلتها ولا من أعماقها ، فإ
ينبغي لعقله أن يشك ، وما ينبغي لبصيرته أن ترتاب ، وما ينبغي
لعزمه أن يثني عما صمم عليه . إنه مأمور بالقصد إلى الحجاز ؛
فليقصدن إلى الحجاز بعد أن يستقر حيناً في الدير ، ويتروذ من
صديقه الشيخ ببعض اليقين .

وهو يمضي أمامه يغمره ضوء الصبح المشرق ، وينعشه نسيمه
البارد ؛ ويشيع النشاط في جسمه ونفسه لذة غريبة يذوقها ولكنه
لا يستطيع تصويرها ولا يحسن وصفها إن حاول هذا الوصف . والغريب

من أمره أنه كان يمضي أمامه دون أن يسأل نفسه : أماض هو في طريقه إلى الدبير أم هائم هو في غير طريق ؟
وما شكه في استقامة الطريق له واعتدالها أمامه ، وهو قد سلكها أمس ، وهو لا يسلكها اليوم إلا مأموراً ؛ فإن الذى أمره أن يعود أدراجه يهديه سبيله إلى العودة ، ما يتطرق إليه في ذلك شك ولا ريب . فليمض أمامه ، ولمحض لا ملوياً على شيء ولا حافلاً بشيء ، وليبعد الخطى فإن الأمد بعيد ! وما ينبغي أن يدركه الليل مرة أخرى قبل أن يبلغ مأمته وينتهى إلى غايته .

ومن الحق أنه لم يسلك هذه الطريق أمس راجلاً ، وإنما كانت تخبّ به الركاب . ومن الحق أيضاً أنه لم يكن دليل نفسه أمس ، وأنه لم يعرف معالم الطريق ولم يشبها ! فهو خليق أن يخطئ القصد ، وأن يجور عن السبيل . ولكن هذه الخواطر لا تلمّ به ولا تعرض له ، فهو مشغول بما يملأ قلبه من أمن ، وما يغمر نفسه من اطمئنان . وهو مشغول بهذه الثقة التي أراحت عقله ، واضطرته إلى الدعة والهدوء ، وجردته من ذلك السلاح الخطر الذى كان يناضل به في ذلك الصراع الأليم .

لقد كان يريد أن يرى ، فقد رأى . ولقد كان يريد أن يشهد ، فقد شهد . وما من شك في أن الأيام ستكشف له عن معجزات أخرى أعظم خطراً ، وأعمق أثراً ، وأنبه شأنًا من هذه المعجزة التي أسرها الليل إليه ، ومن تلك المعجزات التي قصها الرهبان عليه . فليمض أمامه واثقاً ! فقد انجلت عنه الغمرة ، وآذنت محتته بالزوال .

ومن الحق أنه لم يمض في الصحراء أمس وحيداً ولا صفر اليد ، وإنما كان له رفيق يأنس به ويستريح إليه ، وأتباع يعينونه على بعض الأمر ويصلحون له من الشؤون ما لم يتعود أن يصلح لنفسه ، ويحملون له من الزاد والمثونة ما يقيم أوده ، ويعصمه من الظمأ والجوع . وهو الآن يمضى في الصحراء وحيداً لا رفيق له ولا تبع ، ولا مثونة معه ولا زاد . ولكن هذا الخاطر لم يلمّ به ولم يعرض له ؛ لأن قلبه مشغول عن هذه الصغائر بما يملؤه من عظام الأمور . وآية ذلك أن الضحى قد ارتفع ، وأن الشمس قد أوشكت أن تزول ، وأنه على ذلك يمضى في طريقه آمناً هادئاً ، لا يحس ألماً ولا تعباً ، ولا يدعوه جسمه إلى طعام أو شراب ، ولا يجد حاجة إلى شيء إلا إلى أن تبعد خطاه ، وأن يدفعه نشاطه حتى يبلغ مأمنه ، وينتهي إلى غايته ، ويلقى صديقه الشيخ ، قبل أن تجنه ظلمة الليل .

وما من شك في أنه سيبلغ من ذلك ما يريد . وما من شك في أن هذا الصوت الذى أزعجه من مضجعه لم يُردّ به إلا خيراً ، وهو خليك أن يبلغه مأمنه قبل أن يدركه الجهد أو يمسه الضر .

وكذلك مضى الفتى أمامه واثقاً لا يعرف القلق ولا الشك إلى نفسه سبيلاً ، سعيداً بهذا الأمن الذى فارقه منذ عهد بعيد ، والذى عاد إليه الآن يؤنسه في وحدته ، ويزود عنه وحشة الصحراء .

لن يسمع إذا جنه الليل ذلك الصوت الغليظ الخشن يردد في هدوئه الساخر تلك الجملة اللاذعة . لقد أراد ففعل . ولقد عزم فتم . وأى دليل على ذلك أصرح وأوضح من هذه الخطى البعيدة التى تقطع

الصحراء دون أن يجد لها كلالاً أو يلدركه منها سأم ! كلا ! لئن سمع صوتاً في هذه الليلة المقبلة ليسمعن صوتاً حلواً عذياً مشجعاً ، يملؤه ثقة ويدفعه إلى المضي والإقدام . وقد أخذت حرارة الشمس تخف بعد شدتها ، وأخذ وجه النهار يلدركه الشحوب ، وأخذت الظلمة بعد حين تنتشر على الصحراء كأنها السيل المتدفق لا ينر شيئاً أتى عليه إلا غمره واكتسحه اكتساحاً ، ولم يبلغ الفتى مأمنه ، ولم ينته إلى غايته ، ولم يعرف شيئاً من هذه المعالم التي تقوم غير بعيد من الدير . ولكن لا بأس ؛ فإنه يسعى راجلاً ، وقد كانت تخبّ به الركاب أمس . وأكبر الظن أنه إذا مضى في طريقه وباعد بين خطاه ، واحتفظ بهذا النشاط الذي لم يفارقه طول النهار فسيبلغ الدير حين يتقدم الليل . وأكبر الظن أنه لن تمضي ساعات حتى يرى هذه المعالم ، ويتبين هذه الأضواء الضئيلة المضطربة التي تخفق في ظلمة الليل وتمضي إلى بعيد كأنها تدعو إلى الدير أمثاله هؤلاء الذين أضنهم الصحراء وأعيامهم السفر البعيد .

والفتى يمضي وظلمات الليل تتكاثف ويركب بعضها بعضاً ، وهذه الأشعة الضئيلة التي تنحدر من السماء تحاول أن تشق هذه الظلمات فلا تكاد تبلغ من ذلك شيئاً . ومع أن كل شيء قد كان صامتاً من حول الفتى في تلك الصحراء الموحشة أثناء النهار ، فقد يجيل إليه أن اللغظ من حوله قد أخذ يظهر شيئاً فشيئاً ، قد أخذ يظهر قليلاً ضئيلاً كأنه قطع صغيرة متفرقة تحملها الريح ، ثم يشتد ويتداني قليلاً قليلاً ، ثم يتلاصق وينعقد ويأخذه من كل مكان ، وإذا هو يسمع أصواتاً

مشتبكة تأتيه من كل وجه : تأتيه من أمام إذا مضى إلى أمام ،
وتأتيه من وراء إذا وقف متفكراً مستخبراً ، وتأتيه من يمين وشمال ،
ولو صدق نفسه وآمن لخياله لا يعتقد أن هذه الأصوات تنجم له من
الأرض ، وتهبط عليه من السماء ، وهي على كل حال تغمره من جميع
أقطاره وتكاد تُغرقه . ولكنه لم يفقد رشده ، ولم يضل صوابه ؛ فهو
يشهد هذا كله شاعراً به ، محققاً له ، مفكراً فيه . ثم لا يلبث أن
يردّه إلى أصله ويضيفه إلى مصدره . فهو قد سافر يوماً كاملاً لم يذق
فيه من الراحة إلا ما لا يُغنى ، ثم هو قد استأنف السفر يوماً كاملاً
لم يذق فيه طعاماً ولا شراباً ، ولم يأخذ فيه من الراحة بقليل ولا كثير .
وهذا الليل قد تقدّم وهو ما زال ماضياً أمامه ، ولعله يحس تقارب
الخطى وشيئاً من الكلال قد أخذ يتمشى في أطرافه . فهذا الإعياء
من غير شك هو أصل هذا اللغظ ومصدر هذه الأصوات التي تأخذها
من كل وجه . وويل للنفوس القوية من الأجسام الضعيفة ! إن نفسه
لكاملة القوة ، مجتمعة النشاط ، قادرة كل القدرة ، وحريصة أشد
الحرص على أن تمضي حتى تبلغ الدير . ولكن هذا الجسم الضعيف
قد أخذ يفتر ويتهالك ، ويعجز عن مجاراة هذه النفس القارحة .
فليت الله لم يبتل النفوس بالأجسام ! وليته أتاح لهذه النفوس حياة
مجردة من المادة ، مطهرة من هذه الأدناس والأضمار ! ولكن الأصوات
تلغظ ويتكاثف لغطها في سمع الفتى كما تتكاثف ظلمة الليل أمام
عينيه . ولكن جسم الفتى يفتر ويفتر ، ويثقل ويشدد ثقله حتى
تعجز نفس الفتى عن حمله ، وتودّ لو تخرج منه فتلمّ بالدير ثم

تطير إلى الحجاز حيث الصبي العربي اليتيم .

ولكن خطى الفتى تقرباً وتقرباً ، وإذا هو يحس أنه يتحرك دون أن يتقدم ، وينظر فإذا هو قائم مكانه قد فارقه قوته وفارقه نشاطه ، وأحس حاجة إلى الراحة لا يستطيع لها مقاومة ، ولا يجد منها بدءاً .
الراحة ! ولكن كيف السبيل إليها ؟ ! وأين ينتهيها وهو في هذا المكان الموحش الذي لا يعرف له أولاً ولا آخراً ! أما أمس فقد استطاع أن يطلب الراحة مع أصحابه في ظل ذلك الحصن الضخم الشاهق في السماء . وقد كان يظن أنه سيطلب الراحة من ليلته في ذلك الدير الذي لا ينبغي أن يكون بعيداً ، لولا ضعف هذا الجسم النحيل الذي يقعد به وليس بينه وبين الغاية إلا أمد قريب .

ومع ذلك فويل للذين يريدون ولا يفعلون ! وويل للذين يعزمون ولا يتممون ! وهو قد أراد ولا بد من أن يفعل . وقد عزم ولا بد من أن يتم ما عزم عليه . ومن الحق أن جسمه لا يعينه ، وأن خطواته لا تطاوعه . ولكن لا بأس ! فليرفه عن هذا الجسم شيئاً ، ولينحه من الراحة نصيباً ، وليجلس هنا في هذا المكان الموحش الذي لا يعرف له حداً . ولكن ليحتفظ بقوته ويقظته ، وليدفع النوم عن نفسه دفعاً ، حتى إذا استراح الجسم ساعة أو بعض ساعة ، أنهضه وكلفه السعى حتى يبلغ المأمّن ، وينتهي إلى الغاية ، ويصل إلى الدير .

وخيل إلى الفتى أنه جلس ، وإن كان الحق أنه خرّ من أقطاره صريعاً . وظن الفتى أنه محتفظ بقوة نفسه ، ويقظة ضميره وذكاء قلبه ، ونشاطه كله ، وأنه سينهض بعد حين فيمضي إلى غايته . وقد

هم أن ينهض بعد حين . ولكن ماذا ! إنه ليحاول النهوض فلا يجد إليه سبيلا . وإنه ليحاول أن يحرك بعض أطرافه فلا يجد إلى ذلك سبيلا . وإنه ليسمع ذلك اللفظ الذى كان يسمعه منذ لحظة ولكنه يتميزه الآن بعض الشيء ؛ فهو ليس صوتاً منعقداً كثيفاً ، ولكنه أصوات متفرقة ، تتنادى وتتجاوب كأنها أصوات قوم يتحدثون . ثم يحاول أن يفتح عينيه فلا يجد إلى ذلك سبيلا . أين هو ؟ ما خطبه ؟ ماذا ألمّ به ؟ إنه ليجد ثقلاً في أطرافه ، وعجزاً عن الحركة ، وعجزاً حتى عن أن يفتح عينيه . وإن عقله مع ذلك لحاضر يقظ ، ولكنه يحس كأنه يتحرك على غير إرادة ، أو كأنه محمول على شيء يمضى به دون أن يتحققه أو يعرف ما هو .

ثم تنجلي عن الفتى ظلمات نفسه شيئاً فشيئاً ، وتثوب إليه خواتمه قليلاً قليلاً ، ويحضره عقله ورشده حقاً ، ويمتلئ قلبه بالحقيقة الواقعة التى تملؤه رعباً وجزعاً ، وإذا هو يصبح صيحة منكورة ، صيحة المستغيث الواله ، فلا يجد لصيحته صدى ، ولا يسمع لها جواباً ، ولكنه يحس كأنه محمول على شيء يمضى به مسرعاً ، وهذه الأصوات تدفعه دفعاً وتحمه حملاً عنيفاً . ليس من شك فى أنه أسير ، قد أسره بعض الناس ، أو أسره بعض الجن التى كانت تلغظ فى الصحراء . لشد ما ودّ لو استطاع أن يفتح عينيه وينظر من حوله . فليس من شك فى أن الذين أسروه قد عضبوه . وهو يستغيث ويلج فى الاستغاثة ، ويئن ويلج فى الأنين ، فلا يسمع إلا أصواتاً تتصاحك ، وقوماً يتنادون ، وحثاً لهذه المطية التى تحمله .

ثم تمضى ساعة وساعة ، وإذا هو يحمل فيحط على مطيته ، ثم
تحل العصابة عن عينيه فينظر فيرى . ويا هول ما يرى ! يرى نفسه
طريحاً على الأرض في ظل خيمة غليظة خشنة ، وقد أحاط به نفر
نحاف الأجسام ، سمر الوجوه ، يتطايروا من عيونهم الشرر ، ولكنهم
مع ذلك يرفقون به ، ويعطفون عليه ، ويحطون عنه الأغلال ،
ويردّون إلى يديه حريتهما ، ولكنهم يحتفظون برجليه في القيد ، ثم
يقدمون إليه في مسخريّة رفيقة شيئاً غليظاً من طعام وشراب .

وقد أحس القتي بعد هذه الساعة الأليمة أن هزيمة العقل وفلسفته قد كانت منكورة حقاً أمام طبيعة الجسم وغرائزه . فلم يكذب يرى ما قدّم إليه من طعام وشراب حتى أقبل عليه في نهم لم يألفه ، فازدرده ازدراداً ، لم يصدّه عنه غلظه وجفوته ، ولم يصرفه عنه بعداً ما بينه وبين ما كان قد ألف من لين الطعام ورقيق الشراب . بل لم يصرفه عنه ما كان يجد من ذل الإسار بعد عزّ الحرية ، ومن خيبة الأمل بعد تلك الأمانى العراض التي ملأت حياته حين كان في المدينة يلهو ويعبث مع صديقيه ، وحين كان في الدير ينتظر ما سيتكشف عنه الغيب له ولصديقه الشيخ من الآيات الكبار ، وحين تحول عن رفيقه «بحيرى» ومضى عائداً أدراجه مدعناً لذلك الصوت الغليظ الحشن الذي سخر منه في هدوء . كل ذلك لم يخطر له ، ولم يثر في نفسه غيضاً ولا حقناً ، ولم يُغره بامتناع ولا إباء حين قدّم إليه الطعام والشراب ، وإنما استعرضه وفكر فيه ، وذاق مرارته واحترق بروعته بعد أن شفى ألم الجوع والظماً ، وبعد أن استرد جسمه قوته ونشاطه . ولو أننا اطلعنا على دخيلة نفسه حينئذ لرأيناه خجلاً مستخدياً ، ووجلاً محزوناً ، ويائساً من هذا العقل الذي كان يؤمن به ويدّعن له ، ويرى أنه أقوى ما ركب في الإنسان من غريزة ، وأعز ما منح للإنسان من سلطان . وها هو ذا الآن يراه ذليلاً منكسراً ، لا يقدر على مقاومة ،

ولا يثبت لمناضلة ، ولا يمتنع على غرائز هذا الجسم الضعيف الذى كان يحقره ويزدرجه . على أن الفرصة قد أتحت لكلكراتيس ففكر على مهل ، وروتى فى أناة ، وقلب أمره على وجوهه كلها ، وتدوّق مرارة حاله الحديدية حتى استقصى أدق ما فيها من ألم ، وأخص ما فيها من ندم ؛ فهو لم يكد يفرغ من طعامه وشرابه ويشعر أن جسمه قد استرد شيئاً من راحته وهدوئه حتى كان القوم من حوله قد أصابوا شيئاً من طعام وشراب ، واستردوا حظاً من قوة ونشاط ، وإذا هم يتنادون ويتناجون وتختلف بينهم الألفاظ والألحان والإشارات ، وهو يرى ويسمع ولا يفهم شيئاً . ثم يقبلون إليه فيردون يديه إلى الغلّ وعينيه إلى الظلمة ، ويحملونه حيث يشدّونه على مطيته تلك التى كان يحسها منذ حين تسرع به فى السير إسراعاً رقيقاً .

هو إذاً لم ينزل حيث نزل ليقم ويستقر ؛ وإنما ألمّ بمكان من الصحراء ليستريح وليستريح هؤلاء الذين أسروه وعدّوا عليه . وهو إذاً لم يبلغ مأمنه ، ولم ينته إلى غايته بعد . ولكن ما ذلك المأمن ؟ وما هذه الغاية ؟ وماذا يريد به هؤلاء القوم ؟ وإلى أين يحملونه ؟ ولماذا يهينونه ؟ لقد رأهم يتحدثون باللفظ واللحظ فلم يفهم عنهم ، وهو الآن يسمعهم يتناجون فى أصوات ترتفع وتنخفض وتشكل أشكالاً مختلفة بين ذلك ، فلا يفهم عنهم شيئاً . وهو يسأل نفسه : كيف انتهى إليهم وكيف انتهوا إليه ؟ فلا يجد لهذا السؤال جواباً . وإنما يذكر تلك الساعة الأليمة التى رأى نفسه فيها قائماً فى الصحراء ولا يستطيع أن يتقدم ولا أن يتأخر ، وقد اكتشفته ظلمة الليل القائمة ، وغمره

لفظ تلك الأصوات المنكرة التي لا تبين . ثم لا يذكر بعد ذلك كيف انتهى إليهم وكيف انتهوا إليه . ماذا كان ذلك الصوت الغليظ الخشن الذي عجب منه وهزئ به ، وأغراه بالتحول عن العراق إلى الحجاز ، وبالرغبة عن نسطور إلى الصبيّ العربيّ اليتيم ؟ أكان صوتاً قد صدر عن ناصح له ، رفيق به عاطف عليه ، أم كان صوتاً صدر عن ساخر منه ، عابث به مضمهر له الكيد والغرور ؟ ثم يذكر الفتى حديث رفيقه ببحرَى ، وما زعم له من حاجته إلى التجارب والخطوب ، ليرتد عقله عن الكبرياء إلى التواضع ، وعن الغرور إلى الاعتدال . وترتسم على ثغره ابتسامة حزينة أليمة حقاً . لقد كانت أبواب السماء مفتحة حين تحدث إليه رفيقه عن التجارب والخطوب . فما أسرع ما سلطت عليه التجارب وأغرقت به الخطوب ! لقد كانت هذه التجارب والخطوب مسaire له ولرفيقه في الصحراء ، تريد أن تدنو منهما فلا تستطيع ؛ لأن مكان هذا الراهب الكريم كان يمنعها من الدنو ، فما هي إلا أن تحتال حتى تستدرج هذا الفتى وتبعده عن رفيقه الذي وقاه الله شر التجارب والخطوب . فما يكاد يبعد عنه حتى تنساب إليه من كل سبيل . لقد خلص لها وفرغت له فلتذوقه مرارتها خالصة ، ولتنصبّ عليه آلامها ممضة لاذعة، ولتردّ عقله إلى التواضع، ولتباعد بينه وبين الكبرياء والغرور . ثم يخيّل إلى الفتى كأن عقله قد وقف عن التفكير ، وكأن قلبه قد عجز عن الشعور حيناً ، وكأنه في شيء يشبه النوم وليس بالنوم ، وكأنه يسمع ذلك الصوت الغليظ الخشن وهو يبعث في الفضاء فهقهة عالية ملؤها السخرية والاستهزاء ؛ فيعود الفتى إلى شعوره الأليم ،

وتفكيره العقيم ، وإذا هو يسأل نفسه مرة أخرى عن هذا الصوت :
ما هو ؟ وما عسى أن يكون ؟ وترسم على ثغره ابتسامة أخرى فيها
سخرية مرّة ، واستهزاء حزين . فهو يسأل نفسه : ألا يمكن أن
يكون هذا الصوت الذى أغراه بالعودة وورطه فى هذه الكريمة ،
صوت إله من هؤلاء الآلهة القدماء الذين كان يعبدهم ويُقبل عليهم
فى المدينة مع صاحبيه ، ثم لم يلبث أن شك فيهم ، وتنكر لهم وأعرض
عنهم واستجاب لصديقه الشيخ ، وجعل يبحث عن إله جديد دون
أن يبلغه أو يهتدى إليه . فأضاع نفسه بين قديم كان يعرفه ، وجديد
لا يألفه ! لقد أعرض عن عبادة « دينوزوس » وأصحابه منذ عهد
بعيد . ألا يمكن أن يكون « دينوزوس » قد أرسل إليه بعض أتباعه
ليسخر منه ويبعث به ، ويردّه آخر الأمر إلى دينه القديم ؟

ولكن الابتسامة الحزينة الساخرة التى كانت ترسم على ثغر الفتى
تنسع شيئاً فشيئاً ! وإذا شفتاه تنفرجان عن ضحك عال وقهقهة تملأ
الفضاء . ولو أتيج له أن يرى لرأى هؤلاء النفر من حوله وقد ارتسم
عليها شيء من العجب لهذا الأسير الغريب الذى تختلف على وجهه
الابتسامات وتنفرج شفتاه عن الضحك المرتفع البعيد .

ولكن الفتى مشغول عما حوله وعن حوله ، ساخر من كل شيء
ومن كل إنسان ، وساخر من نفسه قبل كل شيء وقبل كل إنسان ،
وساخر بنوع خاص من هذا الخاطر السخيف الذى عرض له ، ومن
هؤلاء الآلهة القدماء الذين أخذ يفكر فيهم والذين لم يخلص لهم الدين
فى يوم من الأيام ؛ ولن يُخلص لهم الدين فى يوم من الأيام ؛ لأنهم

لم يستطيعوا قط أن يبلغوا عقله أو قلبه .

هو ساخر من كل هذا ، وهو مغمغم في لون آخر من ألوان التفكير يملأ نفسه حزناً إلى حزن ، ويفعم قلبه ألماً إلى ألم ، ويضيف في نفسه ذلة إلى ذلة وانكساراً إلى انكسار . لقد ضاق بقصر وبغى قيصر ، حين كان آمناً في المدينة ، وادعاً بين صديقيه ، مستمتعاً بالثروة الواسعة والجاه العريض ، مهياً لأن يضيف إليهما بسطة الملك وضخامة السلطان . لقد أنف من قيصر وبغى قيصر ، وكره أن يدخل قيصر بينه وبين ضميره ، وأزعج الهجرة عن أرض قيصر ، تلك التي يُستدل فيها الناس وتُحمل فيها الرعية على ما لا تُحب ، إلى أرض أخرى يصبح فيها ملكاً لنفسه ، لا يتحكم فيه أحد ولا يبغى عليه سلطان . لقد هاجر من أرض الذلة والهوان إلى أرض العزة والكرامة . لقد أصبح ملكاً لنفسه ، ولكنه ملك لا يستطيع أن يفتح عينيه ، ولا أن يحرك يديه ، ولا أن ينهض على قدميه . ملك عانٍ ذليل مؤثق ، قد شدّ إلى مطية تسرع به إلى حيث لا يريد بل إلى حيث لا يعلم ، وهو لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، بل هو عاجز كل العجز عن أن يفهم من هؤلاء القوم الذين يطوفون به ويسعون من حوله ، إلى أين يذهبون به وماذا يبيتون له ؟

ليسخط الآن على ظلم قيصر وبغيه ، وليحمل الآن عاقبة تفكيره في الهجرة وامتناعه عن سلطان قومه وقوانين وطنه ؛ فقد بلغ من ذلك ما كان يريد وأكثر مما كان يريد . ثم تعود إلى الفتى خواطره التي كانت تملأ رأسه آنفاً ، فيذكر حديث رفيقه الراهب عن التجارب

والخطوب ، وأثرها في ردّ العقل إلى التواضع والاعتدال ، وصرفه عن الكبرياء والغرور . ما أصدق هذا الحديث وأذناه إلى الحق ! إن الفتي لمستسلم للقضاء ، مدعن للقدر ، قد وطن نفسه على الصبر ، وأخذها باحتمال المكروه . وهل يستطيع أن يطمع في غير الصبر ، أو أن يفكر في التبوّ عن الضيم والامتناع على المكروه ! كلا ! إنما هو أسير عاين لا يملك من أمر نفسه شيئاً . وآية ذلك أن المطية تسعى به مسرعة رفيقة إلى حيث لا يعلم ولا يريد ، وأنه قد أخذ يحس الظماً ويجد ألمه محروفاً لاذعاً ، وهو لا يستطيع أن يشفي هذا الظماً ؛ لأنه لا يستطيع أن يفهم هؤلاء النفر من حوله حاجته إلى الشراب . يتكلم فلا يفهمون عنه ، ويريد أن يشير بيده فلا يستطيع ، ويودّ لو يشير بلحظه فلا يستطيع ؛ فقد حيل بين عينيه وبين الضوء . هو يعلم أنه لا يملك إلا الصبر والإذعان ، ولكنه مع ذلك يعالج نفسه على أن يكون صبوراً مدعناً ، حتى لو أتاحت له الحرية وخلّى بينه وبين أن يريد وأن ينفذ ما يريد .

وهو يتصور أن هؤلاء النفر الذين ظلموه وبغّوا عليه قد تابوا إلى العدل فردّوا إليه حرّيته ، وحطوا عنه الأغلال ، وفكّوا عنه القيود ، وخلّوا بينه وبين الأرض الواسعة والفضاء العريض . ثم يعاهد نفسه لئن فعلوا ذلك ليقمّن بينهم أسيراً قانعاً بالإسار ، ذليلاً راضياً بالذل ، عبداً مخلصاً في خدمة مواليه ؛ لأن حديث التجارب والخطوب قد وقر في نفسه واستقر في أعماق ضميره ، ولأنه قد ضاق بطغيان عقله وكبريائه ، وبما كلفه الطغيان والكبرياء من بطر وأشر ومن جهد وعناء .

وكذلك أنفق كلكراتيس ثلاثة أيام ذليلَ الجسم أسيره ، عزيز النفس طليقها . ينزل به سادته حيث يريدون النزول ، فيحطون عنه الغلّ ، ويردّون إليه الضوء ، ويقدمون إليه ما يقيم أوده من الطعام والشراب ، ثم يرحلون به متى أرادوا وقد ردوه إلى سواد الظلمة وثقل الأغلال .

وهو عن ذلك راض ، وله مدعن ، وإليه مطمئن ، لا يفكر حتى في أن يسأل نفسه ماذا يراد به ؟ وإلى أين يقصد به ؟ وما عسى أن ينفعه هذا السؤال ! وما عسى أن يجدى عليه التفكير فيه ! إنما هي محنة لا بدّ من أن يحتملها أراد ذلك أو لم يردّه ، وخطبٌ لا بدّ أن يصبر عليه رضى عن ذلك أو كرهه . فالخير في أن يستقبل المحنة باسمًا لها ، وأن يحتمل الخطب راضياً به ؛ فذلك أكرم له من جهة ، وأهون عليه من جهة أخرى ، وأدنى إلى ما أمره به رفيقه من ملابسة التجارب والخطوب ، وإلى ما أوصت به فلسفة القدماء من أن يريد المرء ما هو كائن إذا عجز عن تحقيق ما يريد .

فلما كان اليوم الرابع نزل القوم وأنزلوه ، وحطموا عنه أغلاله ، وردّوا إلى عينيه ضوء النهار ، وأطعموه وسقوه . وانتظر أن تمضى ساعة وبعض ساعة ، وأن يعود به القوم إلى الغلّ والظلمة والرحيل . ولكنهم لم يفعلوا ، وإنما تركوه حرّ اليدين والعينين ، وأطلقوا رجليه من القيد شيئاً ، خلّوا بينه وبين بعض الحركة البطيئة الثقيلة ، في حدود هذه الخيمة الخشنة التي ضربت عليه ! وجعل أفراد من رجال ونساء يقبلون عليه فينظرون إليه ! فمنهم من يُعجبُ به ، ومنهم من يعجبُ

له ، ومنهم من يضحك منه ، ومنهم من يُظهر له الرثاء ! وكلهم يُقبل فينظر ثم ينصرف . ويُقبلُ المساء فيقدّم إلى الفتى طعامه الجافى وشرابه الغليظ ، ثم يخلى بينه وبين النوم . ويقبل الصباح بعد ليل طويل لم يذق فيه النوم إلا غرأراً ، لا لأنه ضيق بحاله ، كاره لمكانه ، بل لأنه لا يقضى العجب من هذه الخطوب التي اختلفت عليه منذ سمع الصوت الغريب الذي تغطته تلك الفتاة الجميلة في قصر حاكم المدينة .

وقد ألف الفتى حياته هذه في قيده الثقيل وفي خيمته الخشنة ، بل أخذ يألف الذين يدخلون عليه ويحملون إليه طعامه وشرابه بين حين وحين ، بل أخذ يفهم عنهم بعض الحركات والإشارات ، وأخذت نفسه تعي بعض ما يديرون بينهم من الألفاظ . وأخذوا هم بألفون إشاراته وحركاته ، ويمجدون شيئاً من الأنس إلى محضره ، ويشعرونه بذلك بالإشارة واللحظ واللفظ ، ويودّون لو استطاعوا أن يفهموا عنه أكثر مما يفهمون ، وأن يفهم هو عنهم أكثر مما يفهم .

وتتصل الأيام وتتبعها الليالي ، والإلف يزداد من حين إلى حين بين الأسير ومواليه . وهؤلاء أطفال الحى وصبياناه يختلفون إلى خيمته فيطيلون فيها المقام ، وتتصل بينه وبينهم فنون من اللعب الهادئ والدعابة الخزينة . وما ينقضى شهر حتى يفقد الفتى كل وحشة ، وحتى تطيب نفسه بهذه الحياة ، وحتى يتسرب إلى قلبه شيء من الحب لهؤلاء الصبية الذين يلزمونه ، ولا يكادون يفارقونه إلا حين يفرّقهم عنه الليل .

وقد أخذ الفتى يشعر بأن الرضا عن هذه الحياة الجديدة قد أصبح شيئاً عليه ومألوفاً له ، لولا هذا القيد الثقيل الذي يقارب بين خطاه ،

ويحدّ من حركته ، ولولا هذا الحظر الثقيل الذى يضطره إلى خيمته هذه الضيقة الحشنة ، ولا يكاد يبيح له الاستمتاع بالفضاء الواسع والهواء الطلق إلا قليلا ، ولولا خواطر كانت تلمّ به فتثير في نفسه آلاماً لاذعة بين حين وحين ، تذكره بمن ترك وراءه في المدينة من الأهل والصدّيق ، وبما ترك وراءه في الدير من حب ذلك الراهب الشيخ ، وبما لا يزال يتمنى في قوة وعنف من الرحلة يوماً ما إلى الحجاز ، والظفر يوماً ما بقاء ذلك الصبي العربيّ اليتيم .

ويرتفع الضمحي ذات يوم ، والفتى غارق في الدعاية واللعب مع هؤلاء الصبية الذين ملثوا عليه خيمته ، وإذا ثلاثة نفر من الذين أسروه وحملوه إلى هذا المكان قد أقبلوا ، ففرّقوا الصبية في بعض العنف ، حتى إذا دخلوا إليه أقبلوا عليه فأتهضوه وأخرجوه من خيمته ، ومضوا به ، حتى إذا بلغوا به مكاناً بعيداً عن الحى شيئاً سلوا سيوفهم فأروه بريقها ، وهزّوا رماحهم فأروه اضطرابها ، ونثروا كنانهم فأروه سهامها الرقيقة الحادة . وكانوا إذا سلوا السيوف أشاروا بها إلى رأسه ، وإذا هزّوا الرماح أداروها إلى صدره ، وإذا نثروا الكنانن أنبضوا قسيهم فأبعدوا بها الرمي ، ثم أشاروا بأيديهم إلى الجهات الأربع من أمامه ومن ورائه وعن يمينه وعن شماله . وقد فهم الفتى عنهم حق الفهم ، وعرف أنهم ينثرونه بالموت إن حاول الهرب ، ويرغبونه في الحياة المطلقة من القيود والأغلال إن أذعن لهذا الرقّ الذى فرض عليه . وما كان الفتى الفيلسوف في حاجة إلى هذا التذير ! فقد عاهد نفسه منذ حين على الصبر والإذعان ، والرضا بحكم الإسار . ولكنه أظهر لهم

بالإشارة واللحظ ما أرادوا من طاعة واستكانة ، فردّوه إلى خيمته وتركوه فيها لحظة ، ثم عادوا إليه فخلصوه من القيد ، واخلوا بينه وبين الضموم والهواء ، وألبسوه ثياب الرقيق .

والنفسُ راعبةٌ إذا رَغَبَتْهَا وإذا تُرِدَّتْ إلى قليلٍ تَفْتَعُ

وقد كانت نفس كلكراتيس راعبة في كثير ، فأصبحت الآن قانعة بالقليل الذي رُدَّتْ إليه ، بل بأقل من هذا القليل . وأين أيامه هذه التي ينفقها في حَيٍّ من أحياء كلب بن وبرة من أيامه تلك التي كان ينعم بها في مدينة عظيمة من مدن الروم ؟ ! . لقد كان سيداً يأمر في قصره الفخم ، وأرضه الواسعة ، وغلمانه الذين لم يكن يُحسِن أن يخصيهم والذين كانوا يمثلون عنده أجناساً مختلفة من الناس . وكان إذا أظله المساء من كل يوم ارتقى إلى قصر الحاكم فنادمه وشاركه في مرحه وفرحه . وكان الذين يعرفونه من أهل المدينة لا يشكون في أن السلطان صائر إليه يوماً ما . وكان مع ذلك غير راض عن نفسه ، ولا قانع بحظه ، ولا مكثف بهذه الحرية التي كان يستمتع بها ؛ وإنما كان يرى نفسه ذليلاً مهيناً أسيراً لسلطان قيصر ، وكان يرغب في أن يخرج من هذه الذلة والهوان إلى عزّة يتصورها ولا يستطيع أن يجد لها مثلاً . فأين تلك الحياة الحافلة بفضنن اللذات وألوان النعيم من هذه الحياة الجديدة المتواضعة ، أو هي أقل من المتواضعة ، والتي يقضيها بين هؤلاء السادة الكرام ، لا ساخرأً منها ، ولا ساخطأً عليها ، بل قانعأً بها كل القناعة ، راضياً عنها كل الرضا ؟ ! لقد عرف جسمه المترّف غلظ الثياب وخشونتها ، والنوم على الأرض الصلبة بالعراء ، وعرف

الاستيقاظ في السحر ، وعرف خلعة الناس بعد أن كان الناس يخدمونه . بل عرف رعى الإبل والشاء والتطويف بألبانها مع الصباح على هؤلاء السادة يسقيهم منها ، ولا يشرب إلا إذا ارتووا وأرضوا حاجتهم من الشراب . وعرف ما هو أكثر من ذلك وأشد إمعاناً في هوان الأمر وضعة الحال ، ولكنه مع ذلك لا ينكر شيئاً ، ولا يأسى على شيء . ولعل حياته لا تخلو من بعض الغبطة ؛ فقد رأى حياة جديدة لم يألفها ، وعرف بالمشاهدة أجيالا من الناس لم يكن يحقق من أمرهم شيئاً ، وإنما كان يقرأ عنهم في الكتب ، ويسمع عنهم في أحاديث النهار وأسفار الليل . بل هو قد تعلم لغتهم واستطاع أن يتحدث إليهم ، وأن يسمع منهم ، وأن يبلو أخلاقهم السمحة ، وطبايعهم الساذجة ، ونفوسهم النقية ، وقلوبهم الذكية ، فلا يرى من هذا كله إلا ما يسره ويرضيه ، وإلا ما يعجبه ويهره أحياناً . لقد كان سيداً مطاعاً يأمر في عدد ضخم من الغلمان والرفيق ، ولكنه الآن يذكر سيرته في غلمانه ورفيقه ويوازن بينها وبين سيرة سادته معه وأمرهم فيه ، فيرى فرقا عظيماً وبنواً بعيداً .

كان سيداً كما يفهم الروم هذه الكلمة ، مستعياً على غلمانه ، لا يراهم يشبهونه من قريب أو بعيد ، ولا يكاد يفهم مشاركتهم له في الحياة ، ولا يرى أنهم أهل ليحفل بهم أو يفكر فيهم أو يعنى ببعض أمرهم . إنما كان يكل تدبيرهم إلى واحد منهم هو صاحب القصر ، وكان يتخذه أدوات لثروته وجاهه ، ولذته ونعيمه ، ولم يخطر له قط أنهم خليقون ببعض الرفق ، مستأهلون لبعض الرأفة ، وإنما كان مؤمناً

بأن له عليهم كل الحق ، وليس لهم عليه إلا أن يعيشوا ، وهم لا يعيشون لأن من حقهم العيش ، وإنما يعيشون لأن في حياتهم له منفعة وأرباباً . وقد كان يدفعهم الجهد الثقيل المضنى إلى بعض الكلال والتقصير ، فلم يكن يُعنى أو لم يكن ينزل إلى إصلاحهم وتأديبهم ؛ لأنهم لم يُخلقوا لإصلاح ولا تأديب ، ولأن التفكير فيهم إضاعة للوقت ، والعناية بهم تبديد للجهد ، والفراغ لهم إهدار للكرامة . فكان يسلط بعضهم على بعض ، ويجعل بأسهم بينهم شديداً ، ويجنى من شقايتهم سعادة ، ومن بؤسهم نعيماً ، ومن ألمهم لذة ، ويجنى من موتهم الحياة أحياناً ، ولا يرى في ذلك إثماً ولا ضيراً ، ولا ينكر من ذلك قليلاً ولا كثيراً ؛ لأن ذلك كله كان يتفق مع فلسفته وثقافته التي كانت تقسم الناس إلى فريقين : فريقاً خلقوا للأمر وهم السادة ، وفريقاً خلقوا للطاعة وهم العبيد . وهو الآن ينظر إلى سيرة سادته معه وأمرهم فيه ، فيرى عجباً . هؤلاء القوم الغلاظ الجفافة ، الذين يحيون حياة خشنة كلها غلظة وشظف ، قد رقت قلوبهم لهؤلاء العبيد ، وعظفت نفوسهم عليهم ، فهم يخلطونهم بأنفسهم في أكثر ألوان الحياة ، لا يكادون يمتازون منهم في شيء إلا في هذه الأمور التي ترضى غرور الرجل البدوى . هم لا يكلفونهم جهداً إلا وهم يتكلفون مثله ، ولا يحملونهم مشقة إلا وهم يتحملون مثلها ، ولا يؤثرون أنفسهم من دونهم بطيبات الحياة ، وإنما يشاركونهم عن طيب نفس وقرّة عين فيما يتاح لهم من هذا الرزق اليسير الذي تنبته لهم الأرض حين يبلها الغيث . وهم لا يستمتعون بنعمة طارئة أو لذة عارضة إلا أشركوهم في بعض ما يستمتعون به . وإذا

استأثروا من دونهم بشيء ، فلإنما يستأثرون بالجهد والمشقة : يستأثرون بالحرب مدافعين ومهاجمين ، مغيرين على العدو وذائدين عن الحرمات . وهم بعدُ لم يتحضرُوا ولم يتثقفُوا ، ولم يبنُوا المدن ، ولم يشيدُوا القصور ، ولم يستمتعُوا بألوان اللذة والترف ، ولم يذوقُوا علم أرسطاليس وفلسفة أفلاطون ، ولكنهم على فطرتهم الأولى ، أو هم لم يجاوزُوا فطرتهم الأولى إلا قليلاً .

فكر كلكراتيس في ذلك تفكيراً متصلًا طويلًا ، فتغير رأيه في أشياء كثيرة ، وكونَ لنفسه قيمًا أخرى مخالفة لتلك القيم التي كان يقدرُ بها الحياة حين كان روميًا متحضرًا مترفًا . وما له لا يفعل وقد أصبح عبدًا بدويًا يعيش عيشة الأعراب ؛ فليفكر تفكير الأعراب إن استطاع إلى ذلك سبيلًا .

والواقع أنه شارك هؤلاء الأعراب في كل شيء ، فأخلص لهم الحب ، وأضمر لهم النصيح ، واستيقن فيما بينه وبين نفسه أنه واحد منهم ، يسوءه ما يسوءهم ، ويسره ما يسرههم ، وإن فراقهم إن أتيح له سيكون عليه عسيرًا وإليه بغيضًا . ولعله لو مُهدت له سبل الإفلات من هذا الرق لأبى أن يفارق هؤلاء الناس الذين استرقوه وبغوا عليه . ولم يفارقهم وهو لم يفقد عندهم من عزته وكرامته شيئاً ، وهو لم يستمتع قط بحرية نفسه واسعة مطلقة بعيدة الآماد كما يستمتع بها في هذا الطور من أطوار حياته ؟ إنه أسير الجسم ، ولكنه حر العقل إلى أبعد مدى . أسير الجسم إلى حد ما ؛ فقد يكون من العسير عليه أن يحاول الهرب أو الإفلات ، ولكنه حر فيما دون ذلك ، يذهب ويجيء

إلى أى وجه أحبّ ، وعلى أى نحو أراد . وقد وثق به سادته واطمأنوا إليه ، فهم يكلون إليه أموالهم ويأمنونه عليها ، ويثمنون بتديره لها وزياده عنها وعنايته بها . فإساره ظاهر لا يكاد يكون له ظل من الحق . فأما حرية عقله فلم تمس ولم يضيّق عليه منذ أقام بين هؤلاء الناس . لم يسألوه قط عن رأيه ، ولم يمتحنوه قط في دينه ، ولم يراقبوه قط فيما ينكر أو يعرف من الأمر . وقد فكر الفقى فيما يمكن أن يكون لهؤلاء الناس من رأى ودين ، فأعجبه من أمرهم ما رأى وإن كان لم يرضه لنفسه ، ولم يتخذه لها رأياً وديناً .

لم يرهم قط يعبدون إلهاً أو يتقربون إليه بالطاعة وفنون الضحايا ، وإنما سمعهم يديرون بينهم أسماء آلهة يذكرونها ولا يحققونها ، ويظهرن الخوف منها والإكبار لها ، ولكنهم لا يبذلون في إرضائها وتعلقها جهداً ما . هم أحرار الأنفس أحرار الضمائر ، كأنما اشتقوا حرية نفوسهم وضمائرهم من حرية هذا الهواء الطلق الذى يتنفسونه ويعيشون فيه . وهم أحرار الأجسام أيضاً ، لا تقيدهم المدن ولا تحبسهم القصور والدور ، ولكنهم يتزلون ويرحلون متى دعهم حاجتهم إلى أن يتزلوا أو يرحلوا . حرية مطلقة يستمتع بها الجسم ، وحرية مطلقة تستمتع بها النفس والضمير .

كل ذلك كان يعجب الفقى ويرضيه . وكل ذلك كان يعزّيه عما فقد ، ويسليه عما احتمل ، ويعزّيه بالإقامة على حب هؤلاء الناس والوفاء لهم . ولكن شيئاً واحداً لم ينسه قط ولم تملُ عنه نفسه قط ، وإنما كان ذكره له يزداد ، وشوقه إليه يقوى ويشد ، وتفكيره فيه

يتصل ، ولا سيما إذا جنه الليل وخلا إلى نفسه وأبى أن يأوى إلى
خيمته ، أو يطمئن في مضجعه ، وآثر الجلوس في العراء مسرّحاً
طرفه أمامه يرى حيناً ولا يرى حيناً آخر ، مرسلًا نفسه في هذه الصحراء
تيم في غير وجه وتذهب في غير طريق وكان تفكيره فيه يتصل
إذا أصبح فطرد الإبل أمامه إلى مراعيها ، ثم انتهى إلى حيث يستطيع
أن يخلى بينها وبين ما ترعى من الكلاب والعشب ، ويفرغ هو لنفسه
يريد أن يستقصى أخبارها ، ولضميره يريد أن يتعمق أسراره ، وهو
هذا المكان البعيد الذي كان يعيش فيه ذلك الصبي العربي اليتيم .
الصبي ! كلمة كانت تجرى على لسانه وتتردد في ضميره ، لأن
العادة قد أجزتها على لسانه ورددتها في ضميره منذ ذلك اليوم البعيد
الذي قضاه مع رفيقه بجري في الصحراء . وكم مضى بعد ذلك اليوم
من أيام ! وكم انقضى بعد ذلك اليوم من أشهر وأعوام ! وكم تغير
بعد ذلك اليوم من شأن ! وكم حدث بعد ذلك اليوم من أمر ؟ !
لقد كان هو في ذلك اليوم فتى رومياً غضّ الشباب ، نضر الجسم ،
قارح النفس . لقد أخذ شبابه يتولى عنه ، وأخذ جسمه يفقد نضرتة ،
وقد أخذ وجهه يتجدد ويربد ، وقد أخذ قلبه يهدأ ، وقد أخذت نفسه
تحس الفتور . ليس هو الآن فتى رومياً ، ولكنه عبد كهل قد تقدمت
به السن ونيف على الأربعين ، وقد ثقل جسمه ونفسه بعض الشيء ، فهو
لا يسرع إذا مشى ، ولكنه يسعى في رزاة وأناة . وهو لا يسرع إذا
تحدث ، ولكنه يتكلم في ريث ووقار . وهو لا يسرع إذا فكر ، وإنما تخطو
نفسه إلى خواطرها وآرائها خطوات متقاربة تسيطر عليها الدعة والهدوء .

ليس هو فتى رومياً الآن ، ولكنه كهل قد بلغ الشيخوخة أو كاد يبلغها ! فما ينبغي أن يكون ذلك الصبي العربي صبياً كما كان حين رآه بحيرى وتحدث عنه بتلك الأعاجيب . لقد مضت الأيام وتبعها الأيام ، وقد مرت السنون وتبعها السنون ، ولقد صار هو كهلاً ، فيجب أن يكون ذلك الصبي العربي قد صار فتى غض الشباب نصر الجسم ، قارح النفس ، بعيد المم ، ذكى القلب ، كريم الخلق ، سمح الطبع ، معتدل المزاج .

من لهذا الكهل الرومى الغريب بأبناء ذلك الفتى العربي الذى يقيم فى واد بعيد من أودية الحجاز ؟ ماذا جدت من أمره ؟ ماذا أحدثت له الأيام ؟ عمّ تكشف الغيب ؟ أترأه قد أنبى ببعض ما خبي له وما خبي للناس على يديه ؟ أترأه قد أظهر أمره أو كاد يظهره ؟ إن هذا الحى من كلب بن وبرة ليضطرب فى جانب من الأرض العريضة ، يذهب فيه ذات اليمين وذات الشمال ، ويذهب فيه إلى أمام وإلى وراء ، ولكنه لا يبعد ولا يدنو من هذه الطرق التى تمر منها القوافل آتية من الحجاز أو عائدة إليه .

وبما أكثر الذين يتزلون بهذا الحى من كلب بن وبرة من أفراد الناس وشذاذ الآفاق ! فيدنونهم هذا الكهل الرومى ، ويتصل بهم ، ويتوسل إليهم بالوسائل ، ويسألهم عن الحجاز ، فينبثونه عنه بما يعلمون وما لا يعلمون . ويسألهم عن هذا الفتى القرشى ويسميه لهم ، فينكرونه ولا يعرفون من أمره شيئاً ، ولكنهم يثنون على قريش ويعجبون بمفاخرها ومآثرها ، ويثنون على رهطه الأذنين ويذكرون ما لهم من المآثر والمكرمات ،

ثم ينصرفون إلى غير وجه من هذه الأرض البعيدة العريضة التي لا يعرف الطرف لها مدى ، ولا تنهى العين منها إلى حد .

مَنْ لهذا الكهل الروى بشيء من أنباء السماء ؟ فقد كانت الأحاديث متصلة مستفيضة في أديار الرهبان وصوامع الأحبار بأن أنباء السماء قريبة . أفترأها قد بلغت إلى الناس ؟ أفترأها تبلغه يوماً من الأيام ؟ أفترأه يستطيع أن يسعى إليها يوماً من الأيام ؟ ما إقامته بين هؤلاء القوم الكرام من كلب بن وبرة في ناحية من نواحي الصحراء غير بعيد من الشام ، وإن همه لنى واد من أودية الحجاز ، وإن شفاءه لعند فقى من قريش يقال له محمد بن عبد الله ؟ !

ما أكثر ما كانت تخطر هذه الخواطر على كلكراتيس فتملاً نفسه ، وتنفعم قلبه ، وتشبع فيه شوقاً جديداً وحناناً عظيماً ، وترسل من عينيه دموعاً غزيراً ، وتصعد من جوفه زفرات تكاد تحرق قلبه تحريقاً ، وتغريه من حين إلى حين ببعض الأمر ، ولكنه لا يلبث أن يثوب إلى نفسه ، ويثوب إلى رشده ، ويذكر ذلك العهد الذي أشهد الله وضميره عليه حين كان موثقاً إلى تلك المطية التي كانت تسرع به في الصحراء إسرعاً رقيقاً .

ليصبرن على المحنة ، وليثبتن للخطب ، وليقيمن على الوفاء لظالميه والباغين عليه حتى يبلغ الكتاب أجله ! فإن الله لم يصب عليه هذه التجارب ، ولم يمتحنه بهذه الخطوب إلا وله في ذلك أرب وحكمة . فليصبر على المحنة إذأ ، وليثبت للخطب حتى يبلغ الكتاب أجله . ولكن ألم يأن للكتاب أن يبلغ أجله بعد ؟ !

بلى ! قد أتى للكتاب أن يبلغ أجله ، وأن يبلغه في وقت أقصر جداً مما كان يقدر هذا الكهل الرومى الذى ما نزال نحفظ له باسمه الرومى القديم كلكراتيس ، وإن كان سادته لا يعرفون له هذا الاسم ، وإن كان هو نفسه قد كاد ينسى هذا الاسم وما يتصل به من الذكرى ، وأصبح لا يذكر إلا اسمه العربى الحديد الذى اشتق من الساعة التى أسر فيها ، وهى مطلع الصبح فسمى « صبيحاً » .

أتى للكتاب أن يبلغ أجله في وقت أقصر جداً مما كان يقدر صبيح ، وعلى نحو أغرب جداً مما كان يقدر أيضاً . وهل جرى أمر من أموره على نحو ما فكر أو قدر ! ألم تكن حياته كلها ألواناً من الخطوب يتبع بعضها بعضاً على غير انتظار منه لها ولا ترقب منه لوقوعها؟! من كان يستطيع أن يتكهن له بأنه سيأوى مع صديقه الشيخ إلى الدير ، أو سيرحل مع رفيقه بجري إلى العراق ، أو سيقع أسيراً في أيدي هذا الحى من أحياء العرب ، أو سيقضى أعواماً طوالاً لا يسمع فيها صوتاً رومياً ، ولا يتحدث فيها إلى رجل رومى ، ولا يقرأ فيها كتاباً من كتب الروم ، ولا يحاور فيها راهباً من رهبانهم ، ولا حبراً من أحبارهم ، ولا فيلسوفاً من فلاسفتهم ، وإنما يلتحف شملة الأعرابى ، ويتكلم لغة الأعراب ، ويروى أشعارهم كأحسن ما يرويه الأعراب الفصحاء ، ويدعى بهذا الاسم الغريب فيجيب ؟ !

ومن كان يستطيع أن يتكهن له بذلك أوبعض ذلك؟! ولكنه على بعده وغرابته قد وقع له وجرى عليه! وهو جالس ذات يوم في أعقاب النهار وقد امتلأت نفسه بهذه الخواطر التي صورناها آنفاً، وهو مقسم بين الاستسلام لها والاسترسال فيها، وبين النهوض إلى إبله هذه المتفرقة ليجمعها وليدفعها أمامه إلى حظائر الحى. فقد تولى أكثر النهار ومنزل الحى بعيد. إنه لى ذلك وإذ هو يسمع كلبه ينبح عن بعد، فبينه ذلك بعض الشيء، وإذا أشخاص تُرفع له لا يكاد يحققها أول الأمر، ثم تدنو منه شيئاً فشيئاً، فينظر فيرى رجلاً شيخاً نبيل المنظر مهيباً، قد أقبل على راحته، ومن حوله غلمان ثلاثة كأنهم أتباعه في السفر وأعوانه على جهد الطريق.

فلما رأى «صبيح» ذلك نهض متاقلاً، وسعى حتى دنا منه، فيسأله الشيخ عن حيه من هم؟ فيجيب صبيح. ثم يسأله الشيخ عن اسمه وعن موطنه الأول، فيجيب صبيح في أناة ووقار يشبهان الإعراض والفتور. ولكن الشيخ لا يكره ذلك ولا ينكره، وكأنه استعذب صوت العبد واستلذ لغته؛ فهو يطيل معه الحديث، وبلح عليه في السؤال. فإذا عرف أنه روى الموطن، تحدث إليه عن بلاد الروم حديث العالم بها، الملم ببعض شؤونها وأخبارها. على نحو ما كان العرب في ذلك الوقت يعرفون بلاد الروم ويفهمون ما يبلغهم من أنبائها.

ولكن حديث الشيخ يثير في نفس صبيح شوقاً وحناناً، ورغبة في الاستطلاع وشغفاً بالتزديد من هذا الحديث، وإذا صوته القاتر

يَسْتَرِدُّ شَيْئاً مِنْ نَشَاطٍ وَيَشِيعُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ حَرَارَةٍ . وَإِذَا وَجَّهَهُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَظْهَرُ عَلَيْهِ اكْتِرَاطٌ أَوْ احْتِفَالٌ تَظْهَرُ فِيهِ آيَاتُ العِنَايَةِ بِمَا يَسْمَعُ مِنَ الشَّيْخِ والرَّغْبَةِ فِي التَّزِيدِ مِنْهُ .

وَيَطُولُ الحَدِيثُ شَيْئاً بَيْنَ الشَّيْخِ والعَبْدِ ، وَقَدْ شُغِلَ كُلُّ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ فَلَمْ يَذْكَرِ الشَّيْخُ حَاجَتَهُ ، وَلَمْ يَحْفَلِ العَبْدُ بِوَاجِبِهِ . وَتَمَضَى لِحَظَاتٍ غَيْرَ قِصَارٍ ، ثُمَّ يَتَبَّهُ صَبِيحٌ فَيَعْتَلِرُ إِلَى الشَّيْخِ مِنْ تَقْصِيرِهِ وَيَنْسِبُهُ . فَإِذَا انْتَسَبَ الشَّيْخُ وَجَمَّ العَبْدُ وَجُوماً شَدِيداً ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ آيَاتُ الذَّهُولِ أَوْ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنَ الذَّهُولِ . وَامْتَلَأَتْ نَفْسُ الشَّيْخِ لِذَلِكَ عَجَباً ! فَقَدْ انْتَسَبَ الشَّيْخُ إِلَى قَرِيشٍ ، وَتَحَدَّثَ مَالِئاً فَاهٍ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَسَكَانِ الأَبْطَاحِ وَجِيرَانِ البَيْتِ الحَرَامِ ، وَأَنَّ سَادَتَهُ لَا يَسْمَعُونَ اسْمَهُ ، وَلَا يَعْرِفُونَ مَكَانَهُ مِنْ قَرِيشٍ وَمَنْزَلَهُ مِنَ الحَرَمِ حَتَّى يَتَلَقَّوهُ لِقَاءً لَا يَتَلَقَّوهُ أَحَدٌ آخَرَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الحَيِّ مِنْ قَرِيشٍ ، جِيرَانِ اللَّهِ ، وَسَدَنَةِ بَيْتِهِ الكَرِيمِ .

وَالشَّيْخُ يَقُولُ هَذَا كُلَّهُ مَزْهَواً بِهِ ، مَعْنَى فِيهِ ، مَالِئاً بِهِ مَا بَيْنَ شِدْقِيهِ ، كَأَنَّهُ يَمْتَلِئُ عِزَّةً وَأَنْفَقَةً كُلَّمَا أُجْرِيَ مِنْهُ عَلَى لِسَانِهِ لَفْظاً . وَالعَبْدُ يَسْمَعُ هَذَا مَبْهُوراً مَسْجوراً قَدْ مَلَكَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ، وَكَادَ يَذْهَبُ عَنْهُ عَقْلُهُ . وَيَظُنُّ الشَّيْخَ أَنَّ العَبْدَ مَفْتُونٌ بِاسْمِ قَرِيشٍ وَمَوْطِنِهَا ؛ لِكَثْرَةِ مَا سَمِعَ مِنْ ذِكْرِ قَرِيشٍ ، وَلِكَثْرَةِ مَا عَرَفَ مِنْ تَقْدِيسِ العَرَبِ لِهَذَا المَوْطِنِ الحَرَامِ . وَلَكِنَّ العَبْدَ يَفْجِؤُهُ بِهَذَا السُّؤَالِ : فَأَنْتَ إِذَا تَعَرَّفَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ المَطْلَبِ ؟

قَالَ الشَّيْخُ بِاسْمٍ مَعْتَرّاً : نَعَمْ ! سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدُنَا . وَمَنْ ذَا

الذى لا يعرف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ! ولكن ما علمك به ؟ وما ذكرك له وأنت عبد روى لا علم لك بمثل هذه الشؤون ؟ ! .
قال صبيح غير حافل بهذا السهم الذى وجهته إليه كبرياء هذا الشيخ العربى القرشى : متى آخر عهدك به ؟

قال الشيخ ضاحكاً : آخر عهدى به ! آخر عهدى به ثلاثة أعوام وبعض عام . ولكن ما علمك بمحمد ؟ وما سؤالك عنه ؟ .
قال صبيح : ثلاثة أعوام وبعض عام ! هذا كثير . ولعل كثيراً من الأحداث أن يكون قد طرأ فى هذا الرّدح من الزمان .
قال الشيخ : أبني يا غلام ، ما علمك بهذا السيد من سادة قريش ؟ وما سؤالك عنه ؟ وما إلحاحك فى هذا السؤال ؟

قال صبيح : فكيف تركته حين فارقته ؟
قال الشيخ وقد أخذ يتميز غيظاً : تركته سيد قومه ، على خير ما يحبون له وعلى خير ما يحبون منه . ولكن ما أنت وذاك ؟ امض بنا إلى سادتك فقد أخرجتنا عن القصد ، وصرفتنا عما نحن فى حاجة إليه .
قال صبيح ، وقد أخذت دموع هادئة تتساقط على وجهه ، وقد ازداد صوته عدوية ، وحديثه رقة ، وقد أخذ بزمام الراحلة :
على رسلك يا مولاي ! فإني أنتظر هذا الحديث منذ أعوام طوال . وإنك لو تعلم شوقى إليه وكلنى به ، وما احتملت فى انتظاره من ألم ، وما تكلفت من جهد ، وما عانيت من لوعة ، لرفقت بي ، وأشفقت على ، وتلطفت معى فى الحديث .
قال الشيخ : ما رأيت كالأيوم غلاماً رومياً يعنى بأمرتى من

قريش . ثم رقى له وعطف عليه وقال : سلني من أمر محمد
عما أحببت يا بني ؛ فما أرى إلا أن لإلحاقك في السؤال عنه شأنًا !
قال صبيح : ألم يكن قد جهر بأمره حين تركته في مكة ؟
قال الشيخ وقد أخذ يعجب مما يسمع ، وقد أخذت نفسه تتنبه
وتثوب : جهر بأمره ! وأى أمر يا بني ؟ وهل لمحمد أمر يسره
ويريد أن يجهر به ؟

قال صبيح : فقد كان الغيب يحجب أمره إذاً حين تركته ؟
قال الشيخ : أبن يا بني ! فإني لا أفهم عنك منذ الآن .
ما أمر محمد هذا الذي تسأل عنه ؟ فإني لا أعرف لمحمد أمراً ،
وإنما أعرفه فتى كريماً من قوم كرام ، قد امتاز من أثرابه بما لم نألف :
من ظهارة النفس وشرفها ، ومن سماحة الخلق وكرمه ، ومن التزه عن
الصغائر والارتفاع عن الدنيات ، وإنا لنحب ذلك منه ونحبه له ،
وتعتلى قلوبنا إعجاباً به وعطفاً عليه ، وإنا لنضربه مثلاً لشبابنا ،
ونأخذهم بأن يتأثروه ويقتدوا به ، فلا نكاد نبلغ من ذلك أيسر .
ما نريد ؛ لأن هذا الفتى من فتيان قريش قد قدر له حظ من الكمال
لم نألفه قط ! فإنا لا نراه يوماً من أمره على خير إلا رأيناه من الغد
وقد ارتقى إلى خير مما عرفنا . أبن يا بني ! ما أمر محمد هذا الذي
تسأل عنه ، وتنتظر أن يجهر به ؟ ثم أشار الشيخ إلى غلمانه أن
أتلخوا الراحلة ، ففعلوا وأعانوه على النزول ، واتخذ مجلساً ، ودعا
إليه صبيحاً فأجلسه قريباً منه ، ثم أشار إلى غلمانه فتنحوا شيئاً .
فلما فرغ للعبد وفرغ العبد له قال : أفصح يا غلام عن أمرك !

فإن حديثك قد أهتى .

قال صبيح : فأفصح أنت يا سيدى عن أمرك ؛ فإن احتضاك
بجديتى وإصغاءك إلى ، ونزولك عن راحلتك ، وتنحية غلمانك ،
وحرصك على أن تستقصى ما عندى ، كل ذلك يهمنى ويعينى كما
يهمك حديثى ويعينك .

قال الشيخ : فتعلم يا بنى أنى رجل من قریش أنكرت من
أمر قومى شيئاً كثيراً ، وهاجرت من أرضهم أطلب فى بلادك وعند
قومك ما لم أجد فى بلادى وعند قومى . وقد طوّفت فى بلادك ثلاثة
أعوام وبعض عام ! وهأنذا أعود منها يائساً مخيب الأمل ؛ لأنى
لم أجد فيها ما كنت أبتغى ، ولأنى سأجد فى بلادى ما كنت أكره ،
وسألتى من قومى ما كنت أنكر ، وأسأفارق هذه الحياة ولا أظفر بما أريد .
قال صبيح وقد أخذ منه الشوق مأخذه : ماذا أنكرت من

قومك ؟ وماذا ابتغيت عند قومى ؟

قال الشيخ : أنكرت من قومى دينهم هذا الجافى الغليظ .
وابتغيت عند قومك دين إبراهيم فلم أجده . وهأنذا أعود إلى بلادى
وفى نفسى حسرة الحرمان واليأس ، وشيء ضئيل من أمل مع ذلك .
قال صبيح مثلهاً : شيء ضئيل من أمل !

قال الشيخ : نعم ! فقد زعم لى راهب من رهبانكم فى البلقاء
منذ ثلاثة أعوام أن هذا الدين الحنيف الذى أطلبه لا يوجد فى بلاد
الروم ، ولا ينتظر أن يظهر عند النصارى أو اليهود .

قال صبيح : وإنما يربحى أن يظهر فى مكة حيث كنت تقيم !

قال الشيخ : وما علمك بذلك ، فقد أنبأني به راهب البلقاء ؟
قال صبيح : نعم ! ودرجى أن يظهر على يد محمد بن عبد الله
ابن عبد المطلب هذا الذى كنت أسألك عنه وعن أنبائه .
قال الشيخ وقد ملكه العجب ، وكاد يطير شغفاً بأن يعلم ما عند
صبيح : من أنبأك بهذا ؟ ومن أظهرك عليه ؟

قال صبيح : فإني يا سيدى رجل من الروم ، قد أنكرت
ما عند قومي ، وخرجت مثلك أبتغى خيراً مما عندهم ، فعرفت كثيراً ،
ثم هممت أن أستقصى النبأ ، وأبلغ الغاية ، وأنتهى إلى الحجاز ،
وأرى هذا الفتى القرشى الذى تظاهرت أنباء الأحبار والرهبان وأخبار
الكذب والنبوات على أنه النبي الذى أظننا زمانه ، فحلّ بي ما ترى ،
وأصبحت راعياً للإبل في حىّ من كلب بن وبرة !

واتصل الحديث بين الشيخ وصبيح وقتاً طويلاً ، حتى أنكر
الحى غيبته ، وأشفقوا أن يكون قد أغار عليه وعلى إبله بعض المغيرين .
وإكنهم رأوه مقبلاً يسعى ، وينبئهم بأن شيخاً من سادة قريش الأباطح
قد ألمّ بهم يسمى زيد بن عمرو .

وقد احتفى القوم بضيفهم الكريم ، وقرووه كأحسن ما يكون
القرى ، وأنزلوه منهم أحسن منزل . وإكنهم عجبوا من أمره إذ رأوه
حين يتقدّم الليل وهموا أن يتفرقوا عنه يدعو إليه صبيحاً ذلك العبد
الروى ، ويتقدّم إليه في أن ينفق معه ما بقى من الليل . لم يفهم
الكلييون من هذا السيد القرشى كلفه بهذا العبد ، وشغفه به وحرصه
على صحبته ! ولعلمهم أن يكونوا قد أحسوا في نفوسهم بعض الموجدة !

فقد كان هذا الشيخ القرشي خليقاً أن يستعين على أرق الليل بالتحدث إلى الأكتفاء والنظر من سادات كلب وأشرف العرب ، ولكنه يؤثر بالحديث عبداً رومياً لا يعرف من هو ، ولا من أى موطن جاء . على أنهم لم يظهروا من موجدتهم هذه شيئاً ، ومضوا فى إكرام ضيفهم إلى ما أحب . قال بعضهم لبعض : شيخ مقبل من بلاد الروم ، فلا بأس أن يصطفى هذا العبد الرومى ليتحدث إليه ببعض ما رأى ، ويسأله عن بعض ما لم يفهم .

وأنفق صبيح مع زيد بن عمرو ليلة لم تعرف النوم ، وإنما عرفت أحاديث متصلة مختلفة ، ذكر فيها كل منهما لصاحبه ما عرف وما أنكر ، وما بحث وما استقصى ، وما اهتدى إليه من علم ، وما هو منتظر من جليلة الأمر . فلما أسفر الصبح وتقدمت سادات كلب إلى ضيفهم بما أحب من القرى ، وهم زيد بن عمرو أن يرتحل عنهم ، رغب إليهم فى شيء لم يسمعه حتى ازداد عجبهم له وإنكارهم إياه . قال زيد بن عمرو : يا معشر بنى كلب ! إن لى عندكم حاجة ما أظنكم تردوننى عنها أو تأبونها على ! فما رأيت منكم إلا خيراً ! وما عرفت منكم إلا كرمًا ونبلاً .

قال قائلهم : ما تشاء يا سيد قريش ؟

قال : عبدكم هذا الرومى هبوه لى أو بيعوه منى ! فإنى على صحبتة حريص . وما ضاع العرف بين قريش الأباطح وبين حتى من أحياء العرب ، قريب منها أو بعيد عنها .

قالوا : لقد طلبت يسيراً ، وابتغيت سهلاً قريباً ، وإن كنا

لتؤثر هذا العبد الرومي ونحب ما بلونا من أخلاقه ، وما عرفنا من سيرته ، وأمانته في أموالنا وأسرارنا ، فهو لك .

قال زيد بن عمرو : يد محفوظة يا معشر بني كلب . فأما وقد وهبتم لي هذا العبد فأصبح ملك يميني وطوع يدي ، فاشبهلوا أني أعتقته ، ومملكته أمر نفسه من فوري . وهو بعد ذلك حرٌّ في أن يذهب إلى أي وجه من وجوه الأرض شاء .

قال الكلبيون : لقد وفيت ذمتك يا شيخ قريش . ونحن جيران لهذا الرجل وأدلاء له حتى يبلغ مأمته .

قال صبيح وقد أقبل على زيد بن عمرو يقبله ويبارك عليه وإن دموعه لتنهل على خديه غزيراً : وفيت ذمتكم يا معشر العرب . والله ما كرهت جواركم ، ولا شئت الإقامة فيكم ، ولا رغبت نفسي عن ودكم . ولو خيرت لما عدلت بصحبتكم شيئاً ، ولكنه أمر يراد . وما أنا بعائد إلى بلاد الروم ولا رغبة لي فيها ، ولا أرب لي عند أهلها ، وإن كنت قد خلقت فيها من الصديق والخليل ما لا تزال تؤثره نفسي بالحب والحنان ، ولكني ماض مع هذا الشيخ من سادة قريش ، مقيم معه في الحرم ، وفي جوار بيتهم هذا الكريم ، فإن له ولي لشأناً عجباً .

وانصرف زيد بن عمرو وصاحبه الرومي حين زالت الشمس يقصدان الحجاز ، وليس لهما حديث إلا هذا الفتى القرشي اليتيم ، وما أراد الله به من كرامة ، وما قدر الله على يده للناس من نجاة ، وإن زيدا ليقص على صديقه الرومي بدء حيرته في مكة مع نفر ثلاثة من أصحابه : ورقة بن نوفل وعبيد الله بن جحش ، وعثمان ابن الحويرث ، يقول لصاحبه وإن فيه ليملؤه الضحك ، وإن وجهه ليغمره البشر : لقد أراي مع أصحابي ذات يوم نشارك قومنا من قريش في عيد من أعيادنا مسرورين محبورين ، تهتر أعظافنا أريحية وكرماً ، ونريد أن ننهز فرصة هذا العيد لنذيع في فقرائنا وذوي الحاجة من قومنا ما نستطيع أن نذيع فيهم من الخير والمعروف ، فترى قومنا يطيفون بوثن من أوثانهم يكرمونه ويكبرونه ، ويلثمونه بشفاهم ، ويمسحونه مهبين بأيديهم ، وينحرون عنده الإبل والشاء ، فتنظر وننظر ، ونهم أن نفعل ، ولكننا نردّ عما هممنا ، ونجدد العزم على أن نشارك قومنا ، ولكننا نردّ عن ذلك مرة أخرى رداً عنيفاً . وإذا بعضنا ينظر إلى بعض ، وإذا بعضنا يفهم عن بعض ، وإذا نحن نخلص نجياً . وإذا نحن نضحك حتى ما نملك أنفسنا من الضحك ، ونحزن حتى ما نملك أنفسنا من الحزن . نضحك حين نرى سادة قريش وأشراف العرب يطيفون بحجر من هذه الأحجار

التي تطؤها الأهدام ، وتعمل فيها الفؤوس ، وتسخر في أغراض
الناس وحاجاتهم ، وهم يكبرونه ويعظمون أمره ، ويتقدمون إليه
بالعبادة والطاعة . ونحزن حين نرى هذه الأحلام قد استحالت إلى
سقفه لا يشبهه سفه ، وحين نرى ما صار إليه أمر قريش من هذه
الجهالة الجاهلاء ، ومن هذه الضلالة العمياء ، وفيهم مع ذلك بيت
الله ، ومقام أبيهم لإبراهيم ، وقد ورثوا مع ذلك دينه فأضاعوه ولم
يحفظوا منه شيئاً .

نعم ! ضحكنا حتى كاد يقتلنا الضحك ، وحزنا حتى كاد
يملكنا الحزن ، وانصرفنا إلى رحالنا وقد أزمعنا أن نلتمس لأنفسنا
الخير ما وجدنا إلى الخير سيلاً .

فأما ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وأنا فقد ارتحلنا عن مكة
بعد خطوب وألوان من الجهد ، نلتمس الدين عند أهل الكتاب من
يهود ، وعند أهل الكتاب من نصارى الروم .

وأما عبيد الله بن جحش فقد أقام في مكة حائرًا ينتظر . ولم
ندر إذاً ماذا كان ينتظر . ولكني قد علمت الآن أنه كان ينتظر
أن يهبط دين إبراهيم من السماء على مقام إبراهيم في الأرض ، من
طريق فتى من فتيان قريش . إنى لأذكره الآن وأمثله وأراه وكأنى
أسمع له . لم يشاركنا في عيدنا ذلك ، وما رأيته قط يشاركنا في عيد
من أعيادنا تلك التي كنا نقيمها حول الأوثان . لقد فهمت الآن ،
لقد كنت أراه يعتزلنا إذا عكفنا على أصنامنا . ولقد كنت أعجب
من أمره . ولقد هممت غير مرة أن أسأله ما باله لا يأخذ مع قومه فيما

يأخذون فيه ؟ وما باله لا يطوف بالكعبة إلا فرداً ؟ ولكنى كنت أردد عنه رداً كلما هممت بسؤاله . وكثيراً ما سألت نفسى : ما الذى بصرفنى عنه حين كنت أقبل عليه ؟

لقد فهمت الآن ! ما كان الله ليختار لرسالته رجلاً عكف على صنم ، أو تقرب إلى وثن ، أو شارك قومه فى بعض الإثم .

لقد كان محمد متزهاً عن حب الأصنام والقرب منها ، وعن عبادة الأوثان والعكوف عليها ، وعن مشاركة قومه فيما كانوا يفرقون فيه من الآثام . ولقد كان محمد يعيش وحده ، وإن كنا نرى أنه كان يعيش معنا ! لقد فهمت الآن !

ثم يطرق زيد بن عمرو لإطرافاً طويلاً ، ثم يرفع رأسه إلى صاحبه قائلاً : واكنى لم آتم لك الحديث . لقد ارتحلنا من مكة إلى بلاد الروم ، فجعلنا نسأل اليهود عن دين إبراهيم ، فيعرضون علينا ما عندهم ، فلا نرضاه ولا نطمئن إليه . ثم عدلنا عنهم إلى رهبان النصارى وأخبارهم ، فما يكادون يقرءون علينا كتبهم ويظهروننا على بعض ما عندهم من العلم حتى يؤمن أصحابى وتطمئن قلوبهما إلى النصرانية . فأما ورقة ابن نوفل فقد أخذ منها بحظه ، ثم عاد إلى وطنه على أن يقيم فيه على عبادة الله وإكبار المسيح .

وأما عثمان بن الحويرث فلم تعجبه النصرانية وحدها ، ولكن أعجبه بلادك فهام بها ، وفتن بحضارتها ، ومضى إلى قسطنطينية ليعيش فيها عيشة الروم ، ويموت فيها ميتة الروم . وأما أنا فلم يعجبني أمر النصارى كما لم يعجبني أمر يهود . رأيت فى هذا وذاك أشياء لم

أفهمها ولم أذقها ، ولم أحس ملاءمتها لقلب هذا العربي الساذج
السمح اليسير . وما شككت في أن اليهود والنصارى قد عقّدوا أمورهم
تعقيداً ، وأخرجوها عن طبيعتها السمحة ويسرها الأوّل . فجعلت
أطوف على أدياركم في الجزيرة والشام ، حتى لم أدر منها ديراً إلا طرقته ،
وسألت من فيه من الأجار والرهبان . فلم أجد عند أحد منهم شيئاً ،
وإنما هو كلام أسمع ولا أفهمه ، وعلم أحفظه ولا أحصله ، والغاز
لا أهتدي إلى حلها ، وأسرار يعجزني كشفها ، حتى انتهى إلى
صومعة في البلقاء ، يقيم فيها راهب فدّ لا يعايشه أحد ؟ فأسأله عن
دين إبراهيم ، فينبئني بما أنبأتك به من أن دين إبراهيم ليس في بلاد
الروم ، ولكنه سيهبط على بلاد العرب ، وقد آن أوان ظهوره فيها .
فأعود إلى وطني ، وألقاك في بعض الطريق ، وإذ أنت تعلم من الأمر
ما أعلم ، وتنتظر منه ما أنتظر ، بل أنت تعلم أكثر مما أعلم ، وتنتظر
أكثر مما أنتظر .

قال صبيح وقد بهره ما سمع : فإنك قد علمت من أمرى
ما علمت ، ورأيت أن حيرتك في بلادك لا يشبهها إلا حيرتي في
بلادى . وإني قد طوّفت في الأرض كما طوّفت أنت فيها ، وانتهيت
من الأمر إلى مثل ما انتهيت أنت إليه . وما أرى إلا أن الله قد
استنقذنا من الحيرة ، وردّ إلى قلوبنا الثقة والاطمئنان . ولئن بلغنا
الحجاز وانتهينا إلى هذا الفتى القرشى لنكونن أسعد الناس به ،
وأحرص الناس على اتباعه .

قال زيد بن عمرو : ولنمحنّه ما نملك من نصر وتأييد ،

ولنعينته على إظهار أمره وتبليغ رسالته إلى الناس ، وليعلمن الخطاب ابن نفيل عمى الذى كان يؤذنى ويغرى بى السفهاء من شباب قريش أنى لم أكن واحماً ولا متكلفاً .

قال صبيح : نعم ! ولكن متى نبليغ الحجاز ؟ ومتى ننهى إلى سيد قريش ؟

قال الشيخ : ليس الأمد بيننا وبين مكة بعيداً ، وإنما هى أيام وليال ، نفق أكثرها فى هذا الحديث الذى يعيننا على السفر ، ويحمينا من أنصابه وأوصابه ، ويجدد عزيمتنا ، ويثبت قلوبنا ، ثم ننهى إلى ما نحب ، ونظفر بما نريد .

ولكنهما لم ينهيا إلى ما أحبا ، ولم يظفرا بما أرادا ، وإنما مرآ بأرض بنى لحم ، فطمع اللخميون فيهما ، وظنوا أن عندهما مالا وثناء ، فيعدون عليهما فيقتلونهما .

ويصرع الحنيف العربى ، والفيلسوف الرومى ، وإن لسانيهما ليذكران محمداً ، وإن قلبيهما ليظمئنان إلى ذكره ، وإن عموداً من نور ليهبط من السماء حتى يبلغهما ، ثم يفصل منهما مصعداً فى الجو وقد حمل بين ثناياه نفسين كريمتين .

قال ابن إسحاق : وحدثت أن سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل وعمر بن الخطاب - وهو ابن عمه - قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : استغفر لزيد بن عمرو . قال : « نعم ! فإنه يبعث أمة وحده » .